جامعة أم القرى

قسم الدراسات الإسلامية

الكلية الجامعية

العفة في ضوء القرآن الكريم

مفهومها ومقاصدها وضرورتها

إعداد

أ.د- منظور محمد محمد رمضان محمد

أستاذ مشارك

قسم الدراسات الإسلامية بالكلية الجامعية بالجموم

جامعة أم القرى

مكة المكرمة

ملخص البحث:-

عنوان البحث:(العفة في ضوءالقرآن الكريم مفهومها ومقاصدهاوضرورتها).

اسم الباحث: منظور محمد محمد رمضان محمد.

يلاحظ في واقع حياة المسلمين العملية، تقصير في تطبيق أخلاق الإسلام قولا وعملا، لا سيما ما يتعلق بالحقوق استعفافا أو استحلالا، سواء أكان من الأبوين أنفسهم أم من الأولاد، فأصبح المقياس عندهم في ذلك طول اليد والبصر أو قصرهما، وقد اهتم القرآن الكريم منذ نزوله بمبدأ تربية البيئة الإنسانية وبحمايتها من كل ما يشوه صورتها أو يعكر صفوها أو يفسد كيانها، أو يثنيها ويحول بينها وبين أداء الأمانة بشتى الطرق والوسائل، وإنّ موضوع: " العفة في ضوء القرآن الكريم مفهومها ومقاصدها وضرورتها " يتعرض لذكر ذلك بصورة مستفيضة، ببيان نظرة القرآن الكريم إلى حياة العفة على أنها الأساس في بناء المجتمعات الإنسانية يحفظ لها توازنها وقيامها، وبمثابة الضابط الذي يضبط شهوات النفوس ومراداتها، بها تصان المجتمعات الإنسانية من الهتك ، وبامتثالها تسلم من الفتك ، وبالتزامها تنجو من البوار، إضافة إلى أنها الوسام الذي يتميز به المؤمن الصادق من غيره، فهي من هذا المنطلق تشكل قاعدة أساسية لتقويم الإنسان في هذه الحياة لارتباط مصيرهم بها. والله أعلم.

وصلي الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد صلى الله عليه ، وعلى آله وأصحابه ولم . أما بعد:

فإن الإنسان محور الوجود، أساسه قلبه وقالبه، والعناية بالبيئة الإنسانية بالحفاظ عليها من أهم مطالب الإسلام ومن أسمى أغراضه، لذا اتفقت الشرائع وأجمعت الرسالات على الحفاظ عليها مصونة نقية، قال تعالى: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ (الأعراف:٥٦) وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف:٧٤) ونزل القرآن الكريم مؤكدا على مبدأ تربية البيئة الإنسانية وبحمايتها من كل ما يشوه صورتها أو يعكر صفوها أو يفسد كيانها، أو يثنيها ويحول بينها وبين أداء الأمانة: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً﴾ (فاطر:٦) ﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّه﴾ (صّ:٢٦) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ (النازعات:٤٠) ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة:١٩٥) ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء:١).

وهذا من تكريم الله للإنسان ليميزه عن سائر مخلوقاته ، ولكي يحقق الإنسان هذا التمييز أمره سبحانه بأداءالتكاليف: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾ (الأحزاب:٧٢)، ومن ثم استخلفه في الأرض وسخر له ما يحتاج إليه ؛ فقال سبحانه : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ (الأنعام ١٦٥) وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا

فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (الجاثية:١٣) وقال: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ (إبراهيم:٣٤) والغاية منها إظهار تفاوت البشر: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (الملك:٢) وأوجد الله غرائز ونوازع فيهم كالهوى والشيطان، وحدد الحدود ووضع القيود والاحترازات وأوجب أسباب الوقاية، وانصب هذا الاهتمام القرآني في تقرير هذه المباديء والأسس في أمور منها: الفطرة والطبع السليم والعقل الصحيح، ليستنير الإنسان إلى أحسن الأخلاق وأقومها، وليشترشد إلى أفضل الخصال وأشرفها، غير أن آكد اهتمام القرآن الكريم وبالغ عنايته اتجهت إلى أقوى مرتكزات مباديء التربية وهي "حياة العفة" التي وضح القرآن الكريم تطبيقها في بعض أوجه الحياة الاجتماعية، لتكون نموذجا مشروعا لسائر الحياة، ولأجل ذلك فإن الحاجة ماسة في عصرنا إلى معرفة حقيقة "العفة" لجهل كثير بمفهومها ومقاصدها وضرورتها.

تمهيد

خطة البحث:

اشتملت خطة البحث على: مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول، ، وخاتمة ، فهرست المصادر و المراجع، فهرس الموضوعات.

أما المقدمة ففيها بيان مقصد الموضوع

وأما التمهيد ففيه بيان: خطة البحث، عنوانه، موضوعه، أهدافه، أهميته، الآيات التي ورد فيها ذكر "العفة"وما في معناها.

الفصل الأول: العفة في ضوء القرآن الكريم . وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول: تعريف العفة

المبحث الثاني: كوامن العفة ودوافعها

المبحث الثالث: مظاهر اهتمام القرآن الكريم بالعفة

المبحث الرابع: من آثار العفة.

الفصل الثاني: صور من مواطن العفة في ضوء القرآن الكريم .وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: العفة عن التنافس في الحظوظ الدنوية، ويشتمل على التالي:

أولا: العفة عن السؤال

ثانيا: العفة عن أخذ أجرة على رعاية مال اليتيم .

ثالثا: العفة عما ينافي الفضائل:

رابعا: العفة عن الطمع.

المبحث الثاني: العفة عن الحرام

المبحث الثالث: العفة عن التبرج

المبحث الرابع: العفة عن الزنا

المبحث الخامس: العفة عن الأيمان.

الفصل الثالث: ركائز العفة . وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول: عفة الفرج

المبحث الثاني: عفة النظر

المبحث الثالث: عفة اللسان

المبحث الرابع: عفة البطن.

الفصل الرابع: من تطبيقات الحياة العملية للعفة . وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول: إذكاء روح العفة

المبحث الثاني: من ثمرات العفة

المبحث الثالث: عوامل ضياع العفة

المبحث الرابع: من آثار ضياع العفة، ويشتمل على التالي: ١- غضب الله ٢- كثرة لخبث: ٣- تسلط الأشرار: ٤- قسوة القلب: ٥- الأزمات الاقتصادية.

خاتمة: الأهداف التربوية في البحث، فهرست المصادر و المراجع فهرس الموضوعات.

عنوان البحث:(العفةفي ضوءالقرآن الكريم مفهومها ومقاصدها وضرورتها)

موضوع البحث: يلاحظ في واقع حياة المسلمين العملية أن هناك تقصيرا تجاه فهمهم لأخلاق الإسلام قولا وعملا، خاصة فيما يتعلق بالحقوق استعفافا أو استحلالا، ولعل ذلك راجع إلى الانصراف عن أهمية التربية والتوجيه لأخلاق الإسلام، سواء من الأبوين أو من المجامع العلمية أو تقاصر رغبة الأبناء، نتج عنه خروج أجيال تجهل كثيراً من أخلاق الإسلام ، من ذلك: حياة العفة والاستعفاف ، وأصبح المقياس في ذلك طول اليد والبصر أو قصرهما، وموضوع " العفة في ضوء القرآن الكريم " ذلك الموضوع الذي يوقظ القلب ليضبط هذا المقياس ويصحح مسار النفوس.

أهداف البحث: إن النفوس إذا غفلت عن مراقبة الله واسترسلت وراء مطامعها، فإنها تستحلي الانغماس في لذائذ الدنيا وتتجاهل أهمية الحقوق

وتستصغر محارم الله فتستسهل تخطي الحدود، فيعم التسابق في الشر، والانطلاق وراء أهواء النفس الجامحة دون رقيب أو وازع، ولا يردعها عن غَيّها إلا كتاب الله الذي يتعامل مع القلب البشري بصورة مباشرة، ويصور الأمور على حقيقتها، فيبدد حجاب الغفلة مما يحدث له منها الاستيقاظ والمحاسبة، ومن خلال هذا البحث أحاول الوصول إلى الأهداف التالية:

١- توضيح معنى "العفة" بتوضيح نظرة الإسلام لها، وإيصالها إلى مسامع الناس بوضوح ليسهل عليهم فهمها وإدراكها.

٢- أهميته العفة في حياة المسلم وضرورة تطبيقها كما جاءت في القرآن الكريم.

٣- استشعار المسئولية وتحقيق مبدأ النصيحة التي يقوم عليها أساس جلب الخير ودفع الشر، والتواصي بالحق وبالصبر امتثالا لقوله تعالى: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ (العصر ١-٣)٠ولقوله صلى الله عليه وسلم : (الدين النصيحة) قيل: لمن يا رسول الله ؟، قال: (لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[١].

٤- تأصيل البحث بالقرآن الكريم وبالسنة وما أحوجنا اليوم إلى البحوث المؤصلة بمصادر التشريع.

أهمية البحث: تتجلى أهمية البحث وثمرته من حيث استمداده وموضوعه، ومن حيث صلته بالمجتمع وحاجة الناس إليه، ومدى تحقيقه للأهداف والنتائج المرجوة من ورائه، وإنّ موضوع: (العفة في ضوء القرآن الكريم) موضوع مهم يحتاج إليه البشر كلهم؛ لكونه يتصل بكتاب الله تعالى، ويربطهم بواقع حياتهم

الحواشي:

[١] **صحيح مسلم جـ١/ ٧٤.**

العلمية والعملية، لما في شرح هذا الموضوع وبيانه مِن حث وتدبر على فهم كلام الله الذي أنزله الله هدى ورحمة للعالمين وسعادة البشر في الدارين.

ومن البشر من لا يستشعر أهمية العفة حتى يطبقها في حياته العملية، إما لغفلة أو لضعف مراقبة الله المطلع على السر والعلن، كحال بعض المسلمين أو المنتسبين إلى الإسلام الذين لا يعرفون للإسلام حدا أو للأوامر والنواهي معنى، فما يحصل من التعديات في النفس والمال والعرض وهضم للحقوق إلا بسبب تغافلهم إن لم يكن استخفافا بمبدأ أهمية رعاية النفوس بزرع الأخلاق الكريمة فيها كالعفة والصيانة، وحمايتها عما يدنسها ويشينها ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا بقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس:٧-١٠) فهو من هذه الزاوية يشكل قاعدة أساسية لتقويم البشر في هذه الحياة لارتباط مصيرهم بها ، لا سيما في زمن فسدت فيه المفاهيم وانحرف السلوك حول أخلاق القرآن الكريم ، من ذلك خلق العفة، ولأهمية ذلك فإن الله تعالى ذكره في كتابه في عدة مواضع وفي قضايا متعددة، ليكون منهجا ودستوراً للحياة والأحياء ، فما أحوجنا اليوم إلى إيقاظ القلوب من غفلتها، وتصحيح مسارها وإزالة الران عنها وتجليتها، ومِن ثَم فإن لهذا الموضوع أهمية كبرى وحاجة ملحة .

الآيات التي ورد فيها ذكر "العفة"وما في معناها:

١- قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٧٣)

٢- قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء:٦)

٣- قال تعالى: ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (النساء:٣٢)

٤- قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور:٣٣)

٥-قال تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور:٦٠)

٦- قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (الأنعام:١٥١)

٧- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٣٣)

٨- قال تعالى: ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٨٨)

٩- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ (النساء:٢٩)

١٠- قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل:٩٠)

١١- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة:٩٠)

١٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (النور:١٩)

الفصل الأول (العفة في ضوء القرآن الكريم)

المبحث الأول: تعريف العِفَّة لغة وشرعاً .

العِفَّة في اللغة : تدل مادة " عَفَّ " في اللغة على معنيين : الترك ، طلب الشيء [١].

ويقال: عَفَّ واستَعَفَّ عَفًّا وعفافةً - بفتح أوله - وعِفَّةً - بكسر أوله - فهو عفٌّ وعفيفٌ: كفَّ وترك وتباعد عن الحرام أو المحارم والأطماع الدنيئة والسؤال من الناس وعما لا يحلّ ولا يجمل وضبط نفسه [٢].

قال الراغب: أصل العفة في اللغة : الاقتصار على تناول الشيء القليل الجاري مجرى العفافة [٣].

ويطلق "التعفف": ويراد به ترك الشيء و الإعراض عنه مع القدرة على تعاطيه [٤].

والمتعفف: هو المتعاطي للعفاف بضرب من الممارسة والقهر [٥]. والاستعفاف: الصبر والنزاهة عن الشيء [٦].

العفة في الشرع:

عرفت العفة في الاصطلاح الشرعي بتعاريف كثيرة متقاربة ، من أهمها ما يلي :

الأول : حصول حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشهوة .

---

[١] معجم مقاييس اللغة لابن فارس جـ٢/١٣٢.

[٢] الصحاح للجوهري (ع ف ف) اللسان (ع ف ف).

[٣] مفردات ألفاظ القرآن للراغب ص (٥٧٣) اللسان (ع ف ف).

[٤] الترجمان و الدليل ص (٥٧٣).

[٥] مفردات ألفاظ القرآن للراغب ص (٥٧٣) اللسان (ع ف ف).

[٦] انظر اللسان مادة (ع ف ف).

الثاني : كف النفس ومنعها عما لا يحلّ ويجمل ويستحسن شرعا وطبعا، وطلب ما لا يحل ويجمل ويستقبح شرعا وطبعا، وضبطها عند الشهوات [1].

الثالث : هيئة للقوة الشهوية متوسطة بين الفجور الذي هو إفراط هذه القوة، والجمود الذي هو تفريطها [2].

الرابع : أن تغض بصرك وجميع جوارحك عن الأجسام التي لا تحل لك، فما عدا هذا فهو عهر، وما نقص حتى يمسك عما أحل الله تعالى فهو ضعف وعجز. والعفيف هو: من يباشر الأمور على وفق الشرع والمروءة [3].

الخامس : تكلف طلب العفاف وهو الكفّ عن الحرام والسؤال، قال تعالى: ﴿ والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن ﴾ (النور: ٦٠) إيثارا لها لما بين التبرج و الفتنة من صلة، وبين التحجب والعفة من صلة، وذلك وفق نظرة الإسلام إلى سد الفرص المنافية للعفة كالحيلولة بين المثيرات وبين النفوس وما يتنافى مع العفة [4].

والعلاقة بين هذه المعاني الشرعية للعفة والمعنى اللغوي واضحة وهو: أن العفة ترك ما قبحه الشرع واستنكرته الطبائع السليمة، وعدم التطلع إلى ما لا يحمد، كما يترك الشيء الدنيء المحتقر المزهد فيه سواء أكان بالبصر أم بالبصيرة ، كمنافاة رذائل الأخلاق للعفة في جميع صورها. وكما أن مقتضى العفة ترك ما هو منهي عنه شرعا ومروءة، كذلك من العفة طلب ما هو مأمور به شرعا ومروءة. والله أعلم.

---

[1] راجع مفردات ألفاظ القرآن للراغب ص (٥٧٣) اللسان (ع ف ف) أخلاقنا د: محمد ربيع جوهري ص (١٤١).

[2] التعريفات للسيد الجرجاني ص (١٣٢).

[3] التعريفات للسيد الجرجاني ص (١٣٢).

[4] انظر مفردات ألفاظ القرآن للراغب ص (٥٧٣).

ويستخلص من التعريف اللغوي والشرعي: أن العفة خلق جامع شامل منبع لأخلاق الإسلام، وهو ناشئ عن جملة من الأخلاق الكريمة، فهي تتجاذبه وتتنازعه بحسب المواقف التي يمر بها الإنسان، فتارة يكون ناشئا عن الصبر، وتارة يكون ناشئا عن الحياء، و تارة يكون ناشئا عن العزة والغيرة، و تارة عن الخوف وعن المراقبة إلى غير ذلك، فلا يمكن أن يحدد أو يحصر بما يقابله في خلق بعينه، فهو أصل لكثير من الفضائل، وفرع عن كثير من الفضائل، فيؤول الأمر إلى أن يُجعل مقابلا لما يتولد منه وما ينشأ عنه.

ويقابل العفة: الخيانة بجميع أشكالها، وقيل: المنهيات والمحظورات، والافتلات والاسترسال دون قيد، وقيل: يقابله المنكرات والفجور، وقيل: الدناءة والخسة في كثير من صورها [1].

المبحث الثاني: كوامن العفة ودوافعها.

يعد خُلق العفة في أصله جزءًا من أجزاء الفطرة التي فطر الناس عليها منذ النشأة، فما من إنسان إلا وهو مفطور على العفة، قال تعالى: ﴿فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (الروم ٣٠) وهو كسائر الأخلاق يتنامى ويتزايد بالرعاية والاعتناء، ويضعف أو يندثر بمقتضى النشأة الاجتماعية ، قال صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تجدون بها من جدعاء) ثم يقول أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم: ﴿فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ (الروم ٣٠) [2] وبحكم ضعف الإنسان وبما ابتلي به من غرائز ونوازع كالنفس والهوى والشيطان، وبحسب ما يمر به من ظروف مأمور منه

---

[1] الأخلاق الإسلامية وأسسها للميداني جـ٢/٥١٨.

[2] صحيح مسلم جـ٤/٢٠٤٧، وانظر تفسير ابن كثير جـ١/٥٥٧.

مراعاة العفاف في جميع المواقف، كما ورد ذلك في كتاب الله: ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ (النساء:٦) وكما ورد في الحديث: (ومن يستعفف يعفه الله) [١] أي: من يطلب ويكلف نفسه العفة حتى ولو لم يُظهر الاستغناء يُعفه الله أي: يصيره عفيفا، ومن ترقى من هذه المرتبة إلى ما هو أعلى وهو إظهار الاستغناء عن الخَلْق يملأ الله قلبه غنى، لكن إن أُعطى شيئًا فلا يرده كما قال صلى الله عليه وسلم: (فما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه وما لا فلا تتبعه نفسك) [٢].

ومع كون الإنسان مأمورًا بالتعفف حتى في أضيق الظروف، غير أن إرادته لا تزال هي التي تحكم توجهه، ولا يزال الأمر متروكًا إليه لتحقيق الابتلاء، فهو إما أن يتعفف ويبتعد بالإرادة أو بالضرورة، أو يتعاطى ويباشر بالإرادة أو بالضرورة، وطلب الشيء والرغبة فيه، أو الكف عن الشيء والرغبة عنه هما من كوامن الغريزة وأساس الدافع إما إلى الخير أو إلى الشر، إما رغبة أو رهبة.

وقد تتواجد العفة إذا وجد الدافع النفسي إلى ما ينافيها، فإذا ما تعرضت النفس لمثير فإن الاستجابة تكون تبعا للمثير سلبًا أو إيجابًا، وقد تتواجد العفة دون وجود مثير، فإما ألا يكون في النفس دافع إلى ما ينافي العفة، أو لا يوجد ما يثير الدافع أصلا، كمن حجز نفسه أصلا عن المثيرات لئلا يحتاج إلى العفة إما فطرة كعفة من لا حاجة له، أو رياضة كعفة معتزل في صومعة لا يتعرض لأي مثير.

فبالنظر إلى المثيرات التي تحف الإنسان وما يدفعه تجاهها وإلى مدى ثقل الإيمان نجد أن كوامن العفة ودوافعها ترجع إلى أكثر من مُحَرِّك، فتارة يكون الدافع هو الغيرة، وتارة يكون الخوف من العواقب، وتارة يكون مراقبة الله

---

[١] صحيح البخاري جـ٣/٢٩٤، صحيح مسلم جـ٢/٧٢٩.

[٢] صحيح البخاري جـ١١/٥٩٢، صحيح مسلم جـ٢/٧٢٣، وانظر فتح الباري جـ١١/٣٠٤.

والحياء منه، وتارة يكون الصبر عن محارم الله أو على أقدار الله، وتارة يكون الطمع في الثواب والجزاء، وتارة يكون حب الحق وغير ذلك، غير أن ذلك يتجلى في المرء ويتميز به بقدر ما يوجد لدى المرء من الإرادة والقدرة، بقدر ما يكون آخذا بحظه من العفة [1].

المبحث الثالث: مظاهر اهتمام القرآن الكريم بالعفة.

نظر القرآن الكريم إلى العفة على أنها أُسٌ في بناء المجتمعات الإنسانية يحفظ لها توازنها وقيامها، ويضبط شهوات النفوس ومراداتها، وبها تصان المجتمعات الإنسانية من الهتك، وبامتثالها وتطبيقها تسلم من الفتك، وبالتزامها تنجو من البوار، إضافة إلى أنها الوسام الذي يتميز به المؤمن الصادق من غيره، فمن أجل ذلك وضع حدودا وقواعد حتى لا يجتازها الإنسان إلى ما لا يحل له، أو يكف عما يستوجب مباشرته، فيكون بذلك قد حطم سياج الأمن ووضع قدمه في أوحال الفوضى، وقصر في الحقوق، فمن مظاهر هذا الاهتمام، اهتمامه بمرتكزات العفة وأسسها والحيلولة بينها وبين معاول هدمها، من ذلك:

١- تشريع الحجاب ليبقى الكيان الإنساني محتشما محفوظا من الانحلال ومن ارتكاب الرذائل ، وهذا ما دل عليه قوله تعالى :﴿يا أَيُّها النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ﴾ (الأحزاب:٥٩).

٢- الأمر بغض البصر أمانًا من الفتنة، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلِكَ أَزْكى لَهُمْ﴾ (النور: ٣٠) ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ (النور ٣١) لئلا

[1] انظر الأخلاق الإسلامية وأسسها جـ٥٨٢/٣.

تمتد أو تتجاوز اليد أو العين حدود العفة، وكما قال أيضاً : ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه﴾ (طه:١٣١).

٣- الأمر بالستر وعدم المجاهرة بالمعاصي ، لئلا تذيل العفة بالمجاهرة بالفواحش، قال تعالى: ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة﴾ (النور ١٩).

٤- تشريع الاستئذان حفاظا على الأسرار وسترا على الأعراض: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون، فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم، ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ (النور:٢٧- ٢٩).

٥- الأمر بالتزام الحدود وعدم تخطيها أو تجاوزها إلى ما لا يليق أو يجوز، ضمانا من الوقوع فيما لا يجوز أو لا يحمد عقباه ، قال تعالى: ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ (البقرة ١٨٧) وقال: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾ (البقرة ٢٢٩) وقال: ﴿تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم﴾ (النساء:١٣).

٦- النهي عن قربان مظان المفاسد ومزالق الأنفس ومواطن الأوبئة حتى لا يقع المسلم فيها، قال تعالى : ﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء

سبيلاً﴾ (الإسراء:٣٢) وقال: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ (الأنعام ١٥١) وقال: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾ (الإسراء ٣٤).

٧- الأمر باتقاء مواطن الشبهات تعففا من الوقوع في المشتبهات أو المشبهات، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا﴾ (الحجرات ١٢) قال صلى الله عليه وسلم: (ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام) [1].

المبحث الرابع: من آثار العفة.

إن الناظر إلى المجتمعات الإنسانية على مختلف عاداتها وتقاليدها، ليجد أن المجتمع العفيف المتمسك بعناصر العفة والصيانة والواقف عند حدها، يمتاز بمقومات تكفل له حياة سعيدة بجميع صورها وعناصرها وأشكالها، لما تشتمل عليها العفة من فضائل كالحياء والمسامحة والتصبر والسخاء وحسن التقدير والانبساط والدماثة والانتظام والقناعة والهدوء والورع والطلاقة والمساعدة وحسن الهيئة، فإن قيل عن المجتمع الذي يلتزم في حياته بفضائل العفة إنه المجتمع النظيف الصحيح فهو كذلك، وإن قيل إنه المجتمع النزيه العزيز فهو كذلك، وإن قيل إنه المجتمع الذي يثق بعضه ببعض فهو كذلك، وإن قيل إنه المجتمع المترابط الذي يسوده المحبة والوئام فهو كذلك، وإن قيل إنه المجتمع الآمن الذي لا تتسرب إليه الجرائم الخلقية فهو كذلك: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ (الأنعام:١٥٣).

وفي المقابل كم من مجتمعات- مع توفر أسباب الحياة السعيدة- لما وأدت

---

[1] صحيح البخاري جـ١/١٢٦، صحيح مسلم جـ٣/١٢١٩.

العفة وداست الصيانة، وحطمت أبواب الفضائل والمحامد، تشكو اضطراباً في مسار حياتها، مع تجربتها كل ما وصلت إليه فكرها أو توصلت إليه هواجس أنفسها أو خطر ببالها لم تفلح، بل زادها ذلك همًا واضطراباً ، وهذا يؤكد أن العفة ليست سلوكا دينيا يتعبد به فحسب، بل هي سلوك إنساني وعنصر أساسي للحياة السعيدة التي لا غنى للبشر عنها في هذه الحياة .

الفصل الثاني: صور من مواطن العفة في ضوء القرآن الكريم .

من معاني العفة كما سبق: "ضبط النفس سواء في الكف والترك، أو العطاء والطلب" فدل أن العفة اسم جامع يصدق على كل ما لا يجمد سواء في الأخذ أو في الترك، أو في المنح أو في المنع، وبمعنى آخر: نستطيع أن نطلق عليه اسم (المعروف) بكل معانيه، ومن هنا فإن التعفف يُطلب في أشياء كثيرة وعن أشياء كثيرة، غير أن القرآن الكريم قد ذكر صورا بارزة هي مظنة وقوعها من البشر بصورة مكررة، وأكد عليها بيانا وتوضيحا لتكون بمثابة منهج يؤدي إلى حياة سعيدة، من هذه الصور ما يلي:

المبحث الأول: العفة عن التنافس في الحظوظ الدنيوية .

التنافس : مجاهدة النفس للتشبه بالأفاضل، واللحوق بهم من غير إدخال ضرر على غيره [1].

وقيل: هو التحاسد والتسابق والرغبة في الشيء والانفراد به على وجه المباراة في الكرم: ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ (المطففين ٢٦) وفي ذلك فليتراغب المتراغبون [2].

والتنافس نوعان: جائز، وممنوع، أما الجائز فهو التسابق والتنافس في خصال الخير وما ينطبق عليه اسم الخير مطلقًا.

أما التنافس الممنوع: فهو التنافس في طلب حظوظ الدنيا، كمباراة الآخرين فيما خصهم الله أو ميزهم به عن غيرهم. وسنة التفاضل من سنن الله تعالى في خلقه، وهو أعلم وأحكم فيما يعطي ويمنع ويغدق ويقتر ويرفع ويضع، قال تعالى عن حسد أهل مكة لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا

---

[1] مفردات غريب القرآن للراغب (٨١٨).

[2] انظر اللسان مادة (نفس).

بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ (الزخرف:٣١- ٣٢).

ومن التنافس الممنوع أيضاً : استعجال نتائج الأعمال، أو النظر والتطلع إلى ما في أيدي الآخرين من متع الدنيا، أو التنافس في الأماني الباطلة والآمال الزائفة، قال تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾ (طه:١٣١) وفي ذلك مضيعة للوقت والجهد، وهذا التنافس الممنوع لا يورث أهله سوى الحسد والبغي بغير الحق . وعلى العبد إذا رأى غيره مميزاً عليه في شيء من زينة الحياة الدنيا أن يسأل الله تعالى من فضله مع الجد والاجتهاد في تحقيق مصالح الدين والدنيا دون النظر إلى الغير ، كما قال تعالى : ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليما ﴾ (النساء:٣٢) ،وكما جاء في الحديث عن صلى الله عليه وسلم قال : (انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله) [1] ، وذلك لأن الدنيا مهما صفت من منكدات فإن نقصانها وزوالها لا يجعلها تستحق التنافس. ومن هذا القبيل أيضاً : طلب ما فضل الله به عباده بعضهم على بعض من الرجال والنساء، كالتفاضل في الأنصبة والحظوظ ، قال تعالى: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً ﴾ (النساء:٧) وقال تعالى: ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾ (النساء:٣٢) .

---

[1] صحيح مسلم جـ٤/٢٢٧٥.

والحظوظ الدنيوية أنواع ، ويشمل العفة عن التنافس فيها ما يلي :

أولا: العفة عن السؤال:

والأصل في ذلك قوله تعالى : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾(البقرة :٢٧٣)

إذا أطلق السؤال انصرف إلى سؤال المال وما يتبعه، لكونه عصب الحياة ومحور النماء. وقد فطر الله الناس على حبه واكتنازه، وربط به احتياج الناس بعضهم إلى بعض كالربط بين الروح والجسد؛ فلا غنى للناس عنه، كما علق الله به مصالح دينية ودنيوية ورتب عليه الأجور والمكافآت حتى سماه الله تعالى خيرا، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (العاديات:٨) وهو كاسمه يميل بالنفوس البشرية، وما برح الإنسان يطلبه ويتطلع إليه حتى غدا محبوبه، لكن لا يسكنه في قلبه ويغدو عبدا له، حتى يكون مقياسا للمنح والمنع، وقد لا يبالي في جمعه إشباعا لشهوته ورغباته حتى وإن كان على حساب كرامته أو حياته أو دينه، كطلبه من غير وجه حق كالتسول وما شابه ذلك .

ويعد التسول في نظر الأديان جريمة في حق الله تعالى ومذلة لا تليق بالإنسان السوي، قال صلى الله عليه وسلم: (ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم) [1] ، وقال صلى الله عليه وسلم: (المسائل كدوح يكدح بها الرجل وجهه فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء ترك) [2] وقال صلى الله عليه وسلم: (لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس

---

[1] صحيح البخاري جـ٣/٣٣٨.

[2] سنن أبي داود جـ٢/١١٩.

أعطوه أو منعوه) [1] وقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله كره لكم ثلاثا: قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال) [2] .

ولما كان السؤال يكثر في المال تركز حديث القرآن الكريم حوله، من أجل ذلك نجد أن الإسلام وضع إشباعا لغريزة حب المال قواعد ثابتة للنظام الاقتصادي يريد بذلك قيام المجتمع المسلم على أساس قوي لا تغيره التقلبات ولا تؤثر فيه المتغيرات،كالنهي عن الإسراف والتبذير ؛ قال تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا﴾ (الإسراء:٢٩) وقال تعالى: ﴿ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ (الأنعام:١٤١) في الحديث: (لو كان لابن آدم واد من ذهب لتمنى له ثانيا، و لو كان له اثنان لتمنى لهما ثالثا، ولا يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب) [3].

ومن أجل ذلك يرسم القرآن الكريم دستور الإنفاق في الصدقات وفي الكفارات وفي التكافل، ويرسم استحقاق السؤال حتى يقف كل واحد عند حدود مطلبه، ويرسم أحوال الإنفاق سرا وجهرا ليناسب كل حسب مقتضى حاله، غير أن الملاحظ في آيات القرآن الكريم أن الدعوة إلى الإنفاق قد تكررت في أكثر من سورة، ولم يأت التعفف عن المسألة إلا في آيات معدودة ومحدودة، ذلك لأن الإسلام ربى أتباعه على التعفف وعلى صيانة النفس عما يدنسها، وبين أن سؤال غير الله تعالى مطلقا في جميع الأمور جريمة في حق الله تعالى الذي منح العباد ما لا حدود له ولا حصر: ﴿وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾ (إبراهيم:٣٤) غير أن سؤال الصدقة حدده الله للإنسان

---

[1] صحيح البخاري جـ٣/٣٣٥.

[2] صحيح البخاري جـ٣/٣٤٠.

[3] صحيح البخاري جـ١١/٢٥٣، صحيح مسلم جـ٢/٧٢٥.

بأقل ما يكفيه في حياته، قال صلى الله عليه وسلم : (ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان ، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف اقرأوا إن شئتم يعني قوله: ﴿ لا يسألون الناس إلحافا ﴾ [1] عن رجل من مزينة: أنه قالت له أمه: ألا تنطلق فتسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يسأله الناس ؟ فانطلقت أسأله، فوجدته قائما يخطب وهو يقول: (ومن استعف أعفه الله، ومن استغنى أغناه الله ومن يسأل الناس وله عدل خمس أواق فقد سأل الناس إلحافا) فقلت بيني وبين نفسي: لناقة لي لهي خير من خمس أواق، ولغلامي ناقة أخرى فهي خير من خمس أواق، فرجعت ولم أسأله) [2] وقال صلى الله عليه وسلم: (من سأل الناس أموالهم تكثرا فإنما يسأل جمرا فليستقل أو ليستكثر) [3] بل قد ذهب الإسلام في مسألة السؤال إلى عدم سؤال المخلوق حتى في الأمور المعتادة، لأن المسألة ميل للمخلوق بالقلب، وقد بايع النبي صلى الله عليه وسلم الناس على عدم سؤال أحد، عن عوف بن مالك رضى الله عنه قال: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم- وفيه-: (ولا تسألوا الناس شيئا)- قال: فلقد رأيت بعض أولئك النفر، يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحدا يناولكه إياه [4].

كما بين الإسلام أن أحق الناس بالمسالة ممن حبسوا أنفسهم على طاعة الله تعالى، كالجهاد في سبيل الله، وكالتعلم والتعليم، ومن هؤلاء أهل الصفة [5] الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، هاجروا مع النبي صلى الله عليه وسلم

---

[1] صحيح البخاري جـ٣/٣٤٠، صحيح مسلم جـ٢/٧١٩

[2] مسند أحمد جـ٤/١٣٨، وانظر تفسير ابن كثير جـ١/٣٢٦

[3] صحيح البخاري جـ٣/٣٣٩، صحيح مسلم جـ٢/٧٢٠.

[4] صحيح مسلم جـ٢/٧٢١، وانظر في ظلال القرآن جـ١/٣١٥.

[5] هم أناس كانوا أهل عزة ومنعة فأسلموا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهاجروا إلى المدينة فسلب منهم كل شيء، وكانوا يبيتون في موضع عار في آخر المسجد النبوي.

تاركين وراءهم أموالهم وديارهم في مكة، يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله، ويدخل ضمنا تحت هذا العموم من سواهم في جميع الأزمان كالكرام المعوزين الذين تكتنفهم ظروف تمنعهم من تعاطي بعض وجوه التكسب قهرا ويتجملون كي لا تظهر حاجتهم: {يحسبهم الجاهل } بما وراء الظواهر ﴿أغنياء من التعفف﴾ غاية في التكتم والحساسية، ولكن ذا الحس والبصيرة يدرك ما وراء التجمل ﴿تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا﴾ فالمشاعر النفسية تبدو على سيماهم و هم يدارونها في حياء [1].

ولئن كان الإنفاق جهرا يصلح لبعض الأفراد، فإن هذه الفئة التي خصها القرآن الكريم بالذكر لا يصلح أن يكون السبيل إلى سد حاجتها بالأسلوب المعلن، إذ كلما كانت النفوس زكية والأرواح نقية كلما كانت الحاجة ماسة إلى أخذ الحيطة والحذر في التعامل معها لئلا تخدش كرامتها من شدة حساسيتها وما يتبع ذلك من آثار على النفوس العلية التي لا ترضى بالدون، وسياق الآية يرشد إلى هذا التعامل المتميز معهم: ﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ بأن من أراد التقرب إلى الله فليكن على هؤلاء أصحاب النفوس العزيزة، ولكن بطريقة مغايرة سرا، مراعاة لحالهم وحفاظا على مشاعرهم، قال صلى الله عليه وسلم : (ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس، فترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان) قالوا : فما المسكين يا رسول الله ؟ قال: (الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يُفطَن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئا) [2].

هذه الصورة العفة النبيلة يرسمها القرآن الكريم لتلك الطائفة المؤمنة التي صفت نفوسهم وطهرت بواطنهم، تترك أثرا عميقا في النفس، توقف الإنسان

---

[1] انظر في ظلال القرآن جـ١/٣١٥.

[2] صحيح البخاري جـ٣/٣٤١، صحيح مسلم جـ٢/٧١٩، وانظر في ظلال القرآن جـ١/٣١٥.

معجبا معظما لأولئك الذين لم تتحرك نفوسهم لشيء من الدنيا قل أو كثر من زخارف الدنيا ومباهجها ولم تتأثر ببهارجها، لكونهم قد جملوا ظواهرهم حتى ينأوا بأنفسهم عن مدّ أيديهم إلى غير خالقهم، فهم لا يظهرون للناس عوزهم و حاجتهم – مع أنهم في الغاية من ذلك – بل بلغت بهم الكرامة وعزة النفس مبلغا يصعب معه أن يفطن أحدهم من كونهم محلا للشفقة، من باب أولى أن يخفى أمرهم على من يجهلهم، ويذهب به الظن بعيدا ظن أقرب إلى اليقين – إن لم يكن يقينا – بأنهم مثل حاله إن لم يكونوا أحسن حالا منه، فغره ظاهر حالهم و الله أعلم بباطنه، وأمرهم هذا في حقيقته لابد أن يكون بتكلف منهم حتى لا يفطن لهم.

إنّ في هذه التوجيهات القرآنية والتربية النبوية لدروسًا وعظة لكل ذي لب، بأنه هكذا تكون العفة في مجالات مغريات الدنيا، حتى أثنى الله على المتعففين عن المسألة أو الاستشراف عما لدى الغير، وأوصى بالبحث عنهم وتعهدهم بالعطاء [1].

ثانيا: العفة عن أخذ أجرة على رعاية مال اليتيم:

اليتيم : من مات أبوه دون البلوغ ، واليتيم كاسمه مجمع معاني الضياع والضعف من: الانفراد والوحدة والوحشة والصغار والذل والعجز والفقر والقهر والخذلان والإهمال وانكسار الخاطر. وممتلكاته وكرامته عرضة للنهب والاستيلاء، وحينما يتعرض المنهج القرآني للعلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع، يتناولها بالتفصيل والتوضيح لكل ما يتعلق بها من المعاني المستوجبة لتوجيه العناية ولفت الأنظار خاصة إذا كان الأمر يتعلق بفئة مستضعفة في المجتمع كالأيتام، لدرجة أن النفس تجدها تميل تلقائيا إلى الإحسان إليها والشفقة عليها بسبب ما لحقها من هزة قرآنية، وهذا ما نلمسه

[1] انظر الأخلاق الإسلامية وأسسها جـ٢/٥٨٣.

في أمر الله تعالى حين الوصاية على اليتيم، إشعارا بغاية مسكنة هذا المسكين، وتكريما وتشريفا لمكانة الوصي.

وعندما يقرر القرآن الكريم حكما يتعلق بالأمور المالية، كجمع الزكاة أو توزيع النفقات، أو يقرر الوصاية على أمرهام كاليتيم وعلى ماله، فإنه يراعي الشعور الداخلي والرغبة الكامنة في نفوس البشر وميلهم الفطري، حتى لا تحس الأنفس بالحرمان فيستيقظ فيها الحسد البغيض، فتمتد العين أو تستطيل اليد إلى ما وراء ذلك، فيحملها على ما لا يحمد عقباه، ولقد كان حديث القرآن الكريم عن الوصي وعن اليتيم وعلى الوصاية به بصورة مميزة، تبعا لظروف المعني بالحديث عنه، وتبعا لما تقتضيه أحواله، فإنّ الوصي على اليتيم وعلى ماله لا تخلو حالته الاجتماعية من أن يكون أحد رجلين:

الأول : إما أن يكون الوصيّ غنيّاً فعليه أن يعف نفسه عن أن يأخذ شيئاً من مال اليتيم أجراً على ولايته ، لأنه مادام غنيّاً فليكن عمله مروءة إنسانية بغير مقابل يأخذه من مال هذا الضعيف، فلا يليق بمن وسع الله عليه إلا أن يكون حريصا على مصلحة اليتيم ، فينأى بنفسه من أن تمتد يده إلى شيء من ماله حتى ولو كان حقا، وإلى هذا يشير القرآن الكريم: ﴿ومن كان غنيّاً فليستعفف﴾ (النساء ٦) وما أبلغ قوله سبحانه ﴿ فليستعفف﴾ بالسين والتاء ، لأن تعفف الولي عن أخذ أجر على عمله من مالى هو في يده محتاج إلى جهاد نفس وكد وطلب ، وأشار الله إليه بالسين والتاء .

الثاني : وإما أن يكون الوصي محتاجاً إلى أخذ شيء من مال اليتيم في مقابل صرفه بعض وقته في شؤون ولايته وتدبير ماله ، فقد سمح له القرآن الكريم بالأكل من مال اليتيم، لكن في الحدود المشروعة المقيدة : ﴿ ومن

كان فقيرًا فليأكل بالمعروف﴾ (النساء ٦) أي: ما يكفيه نظير قيامه على رعاية اليتيم أو على إنماء ماله أو المحافظة عليه وغير ذلك، غير باغ ولا عاد ولا محتال: ﴿وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أوالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا﴾ (النساء ٢) جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: إني فقير ليس لي شيء ولي يتيم أفآكل من ماله ؟، فقال له: (كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبذر ولا متأثل) [١] وقال تعالى: ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدًا فادفعوا إليهم أموالهم و لا تأكلوها إسرافًا و بدارًا أن يكبروا ومن كان غنيًا فليستعفف ومن كان فقيرًا فليأكل بالمعروف﴾ (النساء ٦).

فمن ولي رعاية اليتيم فليتق الله فيه وليتعفف قدر المستطاع مع بذل الجهد في رعاية حاله، ولا أقل من أن يحافظ على ماله دون إنقاصه، أما التلاعب بحقوق الضعفاء فإنه ينافي الفضائل.

ثالثا: العفة عما ينافي الفضائل:

من كمال خصال الفطرة، قيم ومباديء إنسانية يعد الاستهتار بها أو استدبارها انحطاطا في الإنسانية وانحدارا في المثل والأخلاق وقدحا في كرامتها، وتوصف هذه برذائل الأخلاق، وهي أشكال في ذاتها كالرذالة والدناءة والخسة والخبث والدون، سواء في المنظر أو في الحال أو في الأقوال أو في التعامل، والمتصف بها هو الخسيس الخبيث، ومن سفُل في فعله ومعجن لا خيرفيه [٢] ويشمل ذلك ممارسة الإنسان ما لا يليق أو يتناسب بمكانته الاجتماعية ووضعه الاقتصادي أو الثقافي، كالجشع والتسابق إلى الرذائل، أو مزاحمة

---

[١] سنن أبي داود جـ٣/١١٥. (غير متأثل) أي: غير مدخر ولا مستثمر، ولا متخذ أصل مال، وأَثْلَة الشَّيْء أَصْله. المعجم الوسيط (أ ث ل).

[٢] اللسان مادة (رذل).

صغار الكسبة في مجالاتهم زهيدة الأرباح، أو تعاطي أعمالا دنيئة، أو مجالسة السفهاء والسوقة ومماراتهم، أو تصدر المجالس للجدال بالباطل رغبة في الظهور إلى غير ذلك، يكتسبها الإنسان أو بمجالسة المتصفين بها أو استهتارا بقيمة الفضائل أو انحطاطا في الشخصية، وفي كل الأحوال يجب الارتقاء بالنفس إلى معالي الفضائل، ومجانبة المتصفين بها حتى لا تزهد النفس عن الفضائل، قال تعالى مخاطبا ومربيا رسوله صلى الله عليه وسلم ليكون تعليما للمؤمنين بنزاهة النفس عن مهاوي الدون والترفع عن مواقف الرذالة والابتعاد عن مسالك الدناءة: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ (الأعراف:١٩٩) فليس وراء جاهلية الجهال سوى التمادي في الغي والضلال قولا وفعلا، وكلما اقترب حس الإنسان من حس أهل الخسة اكتسب دناءة، لذا قال تعالى عقب ذلك: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ (الأعراف:٢٠١) أي: في طرق تنزيه النفس عن سفاسف الأخلاق والخصال، وتأتي الصورة الوضيئة للنفس المؤمنة المطمئنة إلى إيمانها لتفيض بالترفع عما يدنس النفس أو يحط من كرامتها، كما تفيض بالسماحة والود، وترسم لمن يريد أن يتأدب بأدب الله طريقا واضحا لا لبس فيه: ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾ (القصص:٥٥) لا يجاورون أهل اللغو فيردون عليهم بمثله تعففا وتنزها، ولا يدخلون معهم في مساوىء الأخلاق حتى لا تسقط النفس فتزهد في طلب المعالي أو تستغلي الكرامة وتستحلي الوقوع في الرذائل: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾ (الفرقان ٦٣) وقد رمز القرآن الكريم إلى العفة في القول حين قال عن الأخيار: ﴿وهدوا إلى الطيب

من القول وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ (الحج:٢٤) وقال: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ (فاطر ١٠).

رابعا: العفة عن الطمع:

الطمع: نزوع النفس إلى الشيء شهوة له [١] ، وهو من أخلاق النفوس وسجيتها، وهو قسمان: محمود وهو ما كان في ذات الله كالتذلل لله: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴾ (السجدة:١٦) وكالطمع في مغفرة الله وجناته: ﴿إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ﴾ (الشعراء:٥١) أو كالطمع في جلب أحد إلى الخير: ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ﴾ (البقرة ٧٥).

وطمع مذموم وهو: ما كان من أجل هوى النفوس. وهوى النفوس ليس لها حد أو مقنع، ولما كان أكثر الطمع من أجل الهوى قيل: الطمع طابع، كالأطماع النفسية الوضيعة، أو ما يلام الإنسان على مباشرتها، كتناول ما لا يجوز شرعا أو كحب الاستمساك في غير وجه شرعي، وما أكثر أطماع النفوس وشهواتها لا سيما في هذا الزمان، ومن أمثلة ما ذكره القرآن الكريم من الأطماع المذمومة معاملة القوي المقتدر للضعيف بالتسلط، والاستعلاء على بعض من لا حول له ولا حيلة كالمملوك، ومن شأن الرق انعدام التصرف، والذل والهبوط الخلقي بجميع صوره بحكم ضعف حساسية الرقيق بالكرامة الإنسانية.

هذا ،وقد جاء الإسلام والرق موجود ، لكنه عمل على تجفيف منابعه ، ثم تصفيته .

---

[١] مفردات ألفاظ القرآن للراغب (٥٢٤).

والإسلام كلما واتت الفرصة عمل على التخلص منه تخلصا من بعض الرذائل التي سببها الأرقاء بسبب تعدي أهل الجاهلية على نظام الاسترقاق، كإجبار إمائهم لجلب المال أو لدفع الضرائب على ارتكاب الزنا، فكانت الأمةُ بطبيعة ضعفها قد لا تستطيع الوفاء إلا بالتكسب بفرجها، فحرم الإسلام ذلك ونهى عنه، وخص هذه الحالة بنص قرآني خاص، روي أنه كان لعبد الله بن أبي بن سلول إماء فكان يكرههن على البغاء- وهن كارهات له- طلبا لخراجهن ورغبة في أولادهن [1] ، فأنزل الله تعالى قوله ﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله، والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم، ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾ (النور:٣٣).

ولكون الإسلام دستور العزة والكرامة ، جاء ليمنح البشر تلك العزة والكرامة المستمدة من نور الله ، فقد أخذ يحارب كل ما يخالف سلامة المجتمع كالأطماع المذمومة، لكن بنظام عادل منصف يمنح كل ذي حق حقه المشروع تحت ظل الإسلام، فأمر الأولياء بتلبية رغبة المملوكين في التحرر إن أرادوا المكاتبة على الحرية، مقابل مبلغ من المال يؤديه فينال حريته، والكسب الحلال الشريف مطلب إنساني وشرعي في جميع الأحوال حتى في أضيق الظروف، قال تعالى: ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ (البقرة:١٦٨) والوسائل والغايات لا تقلب الحرام حلالا ولا العكس، كتقاضي أجور وأثمان تداول المنهيات شرعا، كالذي يتصور حرمة تعاطي المحرمات كالمخدرات والميتة ويرى جواز أكل ثمنها، وقد كانت في الجاهلية مكاسب تعارف الناس على

---

[1] انظر صحيح مسلم جـ٤/٢٣٢٠، تفسير ابن كثير جـ٣/٢٨٩.

تعاطيها، وامتدت إلى أول الإسلام وبقيت إلى حين، ومن ذلك كان وجود الرقيق مطمعا للمكاسب المحرمة لبعض ضعفاء النفوس المنحرفة، وكان ذلك سببا في انتشار بعض العادات السيئة التي حرمها الإسلام، فاشترط على المملوكين القدرة على الكسب، لئلا يلجأ الرقيق إلى تلك وسائل المرذولة، لا سيما الجارية لضعفها عن تحمل مشقة العمل والتكسب، فقد يجبرها دفع ضريبة الإعاشة أو نيل الحرية إلى تعاطي مكاسب محرمة، فليس المهم تحرير الرقيق، ولكن لئلا يلجأ إلى وسيلة غير كريمة يعيش منها، فيفرط فيما هو أثمن من الحرية، قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ، وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور:٣٣).

المبحث الثاني: العفة عن الحرام.

الحرام كل ما حظره الشرع ومنع منه قولا كان أو فعلا [1] ، وقد يكون الحرام مع حرمته ترغبه النفس وتميل إليه كالاستمتاع بغير وجه شرعي، أو التملك بغير وجه شرعي، أو التسلط والاعتلاء بغير وجه شرعي، وقد لا ترغبه النفس ولا تميل إليه كالمستقذرات طبعا، وإن كان لذة العفة أعظم من لذة الذنب، ولا ريب أن النفس إذا خالفت هواها أعقبها سرور ولذة أكمل من لذة موافقة الهوى بما لا نسبة بينهما، وههنا يمتاز العقل من الهوى، وهنا تظهر قوة النفس وعفتها ومقدار مخافتها ومراقبتها لله، ولذا يحمد الصبر عن محارم الله لمجاهدة النفس وقهرها وقصرها على مخالفة مراداتها: ﴿والَّذين جاهدُوا فينا لنهدينَّهم سُبُلَنا﴾ (العنكبوت:٦٩) بل قد عدّ أعظم الصبر وأفضله الصبر عن محارم الله لشدة ميلان النفوس ولقوة غلبتها ورغبتها فيه: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (المؤمنون:١١١).

وفي كل الأحوال يأمر القرآن الكريم بالتعفف والاجتناب عن جميع ما حرمه الله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (الأنعام:١٥١) وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٣٣) وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

[1] أنظر مفردات ألفاظ القرآن للراغب (٢٢٩).

(البقرة:١٨٨) وقال: ﴿يا أَيُّها الَّذين آمنُوا لا تَأْكُلُوا أَموالَكُم بَينَكُم بِالْباطل إِلَّا أَن تَكُون تجارَةً عَن تَراض مِّنكُم ولا تَقْتُلُوا أَنفُسكُم﴾ (النساء:٢٩) وقال: ﴿إِنَّ اللَّه يَأْمُر بِالْعدْل والْإِحسان وإِيتَاء ذي الْقُربى ويَنْهى عَن الْفَحْشاء والْمُنكَر والْبَغْي﴾ (النحل:٩٠) وقال: ﴿إِنَّ الَّذين يُحبُّون أَن تَشيع الْفاحشَةُ في الَّذين آمنُوا لَهُم عَذَابٌ أَليم في الدُّنْيا والْآخرة﴾ (النور:١٩) وقال: ﴿يا أَيُّها الَّذين آمنُوا إِنَّما الْخَمْرُ والْمَيْسرُ والْأَنصابُ والْأَزْلام رجْسٌ من عَمل الشَّيْطَان فَاجْتَنبُوه لَعَلَّكُم تُفْلحُون﴾ (المائدة:٩٠) وأعمال الشيطان كثيرة لا تنحصر في قول أو عمل، وأعظمها بلاء وفتنة وهلاكا التبرج ـ خروج المرأة كاشفة عن وجهها وصدرها وهو ما يعرف بتبرج الجاهلية ـ وهو سبب الوقوع في الكبائر والمهلكات.

المبحث الثالث: العفة عن التبرج:

التبرج: هو خروج المرأة بإظهار زينتها وإبراز محاسنها وما تستدعي به شهوة الرجل [1] ، وهي عادة جاهلية بهيمية مستقبحة مرفوضة فطرة وعقلا، تدل على انحطاط المجتمع الإنساني وتنزله فكريا وثقافيا ونفسيا واجتماعيا، لإباء الفطر البشرية ذلك ، قال تعالى: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً﴾ (الأعراف ٢٦) أي: مصدر تجمل وحشمة وستر وإثارة، أما التبرج فهو طريق إلى سريان الفساد والذوبان، ومصدر ركود الرغبات وخمولها في المجتمعات الإنسانية.

ولكن استثنى الله لظروف معينة في أضيق الحدود بعض فئات الناس رحمة بهم ورفع الحرج عنهم، وهن النساء القواعد اللواتي وصلن سن اليأس ولم يبق لهن تشوف إلى التزوج أو الرغبة في معاشرة الرجال، وانعدمت أجسامهن من الفتنة، وغدا التزين عندهن سواء باللبس أو غيره مجلبة للمشقة والكلفة، وإن كن مطالبات بالتعفف عن التبرج وعن إبداء الزينة المثيرة، أو العورة التي يجب سترها في حق غيرهن، مع أن لهن أن يضعن ثيابهن الخارجية بشرط ترك إبداء الزينة، فإن كانت قد خلت تماما من الرغبة في الرجال والميل إليهم، فعلام حينئذ يكون التجمل والتزين ؟ قال تعالى : ﴿والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن﴾ (النور : ٦٠) ﴿القواعد﴾ جمع قاعد وهي التي قعدت عن الحيض والتزوج، وقد جرت عادة النساء اليائسات المسنات أنهن لا يتكلفن الزينة لما رسخ في نفوسهن من أنهن لا يطمعن ولا يُطمع فيهن، فإذا وجدت امرأة تطلب الزينة دل على أنها لا تزال لديها الرغبة في الرجال، وإما

---

[1] راجع جامع البيان للطبري جـ٤/٢٢، لسان العرب مادة (برج) موسوعة أخلاق القرآن للشرباصي جـ٥/١.

أنها تفعل ذلك لا لشيء سوى إشباعا لأنوثتها وجريا وراء غريزتها محاكاة لبنات جنسها، والأولى بها ترك هذا التبرج وتلك الزينة فهي لا تليق بها، كذلك لا تكون مثارا للفتنة والإثارة التي تجر إلى ما وراء ذلك مما هو أفظع وأنكى كالزنا [1]. وما أباحه الله تعالى لهؤلاء القواعد هو وضع بعض الثياب ، وهو الجلباب الخارجي ، كما جاء في قراءة شاذة تفسيرية

(أن يضعن من ثيابهن) أي : بعض ثيابهن .

المبحث الرابع: العفة عن الزنا.

الزنا: تغييب حشفة في فرج محرم مشتهى طبعًا من غير نكاح ولا شبهة نكاح.

من أقوى الشهوات وأعظمها التي تتزلق عندها أقدام الرجال: شهوة النساء، لكثرة تشوف النفوس إليهن ولعراقتهن في معنى الشهوة، وغالبا ما يأتي الشيطان من قبلهن لأنهن حبائله، ولضعف الرجل أمام هذه الشهوة ، فقد رؤي الرجل اللبيب الحازم يفقد السيطرة، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ (آل عمران:١٤) وقال صلى الله عليه وسلم: (حبب إلي من الدنيا النساء والطيب) [2]. وقال صلى الله عليه وسلم: (ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء) [3] .

ومن بواعث هذه الفتنة الوقوع في جريمة الزنا وهي من أفظع الجرائم الإنسانية شناعة وقبحا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء:٣٢) والعفة عن الوقوع في الزنا من أعظم القربات وأفضل الطاعات، بل هي من خصال أولي العزم من الرسل، ولا يصبر أو يقوى عن الوقوع في جريمة الزنا بعد توفر أسبابها إلا من وفقه الله وحماه، إما بفضل سابقة خير قدمه لله، أو

---

[1] في ظلال القرآن جـ٤/٢٥٣٣، وانظر تفسير ابن كثير جـ٣/٣٠٥.

٢ سنن النسائي جـ٧/٦١، وصححه الألباني جـ٣/٨٧.

٣ صحيح مسلم جـ٤/٢٠٩٧.

بكرم طاعة مقبولة عند الله، أو بسبب سعادة أزلية، أو بعصمة إلهية، قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام : ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون، ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ (يوسف:٢٣- ٢٤) ﴿قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾ (يوسف:٣٣).

والإسلام بفضل تعاليمه الحكيمة مع شدة ميلان النفوس إلى شهوة النساء قد وضع حواجز تحول دون الوقوع في هذه الفتنة، لذا كان العقد الشرعي هو الطريق الطبيعي الشريف لمواجهة هذا الميول، وحث الإسلام على إزالة العقبات من طريقه ما أمكن، ومن العوائق - في أنظار الناس وفي أعرافهم- لتحصين النفوس وبناء البيوت العائق المالي، وهو في نظر الإسلام لا يعد عائقا، إضافة إلى أن الإسلام شرع: الحجاب وأمر بغض الأبصار، ومنع الخلوة والاختلاط والتكشف وإظهار الزينة، أو الاتصال إلا في دائرة الشرع، كل ذلك منعا للإثارة وخوفا من الفتنة والوقوع فيما هو أفظع، فإذا ما اجتنب الإنسان بواعث الفتنة، وصان نفسه عن مظان المزالق وابتعد عما حرم الله عليه، فإن الله بفضله يحفظه بحفظه.

وأشار الله تعالى إلى العفة عن الزنا بقوله : ﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله﴾ (النور ٣٣) ، فإذا أطلق لفظ "العفة" فإنه ينصرف إلى صون الفرج عن الوقوع في الحرام، ولا يعذر المرء بعدم قدرته على الزواج تجاوزه حدود العفة أو انتهاكه سياج العفاف، فإن الآية واضحة في إرشادها لمن لا يتيسر له النكاح، بل الواجب في جميع الأحوال التعفف والأخذ بالأسباب المعينة عليه، ولقد أثنى الله تعالى في عدة مواطن

في كتابه الكريم على من يتعفف ويحفظ عرضه وشرفه، وبين ذلك بأنه صفة من صفات أهل الإيمان فقال: ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾ (المعارج ٢٩-٣٠) ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن العفة ذات مكانة جليلة، حتى كأنها هي كل الشرف، وببركتها ثم الحياء من الله يكرم الله العبد من واسع فضله ويغنيه برحمته بزوجة مناسبة تملأ بيته خيرا وسعادة، وتعينه على أمور دينه ودنياه فضلا منه وإحسانا، وصدق الله : ﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله ﴾ أي: ليطلب من الله العفة ومنعه في الوقوع فيما لا يحل، وفسره ثعلب[1] : ليضبط نفسه بمثل الصوم فإنه وجاء [2] وقال صلى الله عليه وسلم: (ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله) [3] أي يجازيه بصيانة وجهه ودفع فاقته ويعطيه ما يستغني به عن السؤال بخلق الغنى في قلبه.

وإن مما يستعان به على ذلك:

---

[1] أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني بالولاء، أبو العباس، المعروف بثعلب: إمام الكوفيين في النحو واللغة. كان راوية للشعر، محدثا، مشهورا بالحفظ وصدق اللهجة، ثقة حجة. ولد ومات في بغداد. وأصيب في أواخر أيامه بصمم فصدمته فرس فسقط في هوة، فتوفي على الاثر. من كتبه (الفصيح - ط) و (قواعد الشعر - ط) رسالة، و (شرح ديوان زهير - ط) و (شرح ديوان الاعشى - ط) و (مجالس ثعلب - ط) مجلدان، وسماه (المجالس) و (معاني القرآن) و (ما تلحن فيه العامة) و (معاني الشعر) و (الشواذ) و (إعراب القرآن) وغير ذلك وتوفى٢٩١ هـ راجع الأعلام للزركلي ١ / ٢٦٧ ط دار العلم للملايين .

٢ انظر اللسان مادة (ع ف ف)..

٣ صحيح البخاري جـ٣/٢٩٤، صحيح مسلم جـ٢/٧٢٩.

أ- مراقبة الله تعالى واستحضار معيته في جميع الأحوال، ومجاهدة النفس بحفظ الجوارح عما يثير الغرام ويحرك الغرائز، وبإشغالها بما يفيد دنيويا وأخرويا، فإن الفراغ خراب للعمر، قال صلى الله عليه وسلم: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) [1].

ب- تذكير النفس بسير الأنبياء وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم المتعلقة بفضل التعفف، قال تعالى: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ (يوسف ١١١) وقال تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ (الأحزاب ٢١) أي: اقتداء جميل.

ومن القصص القرآنية التربوية المؤثرة في تقويم السلوك باستعفاف النفوس، قصة يوسف عليه السلام الذي أنزل الله في حقه وباسمه سورة تتلى، ولا يكاد يطرق السمع كلمة " العفة " حتى ينصرف الذهن إلى ذلك النموذج الرائع قصة يوسف عليه السلام ، فقد اشتملت قصته عليه السلام على معان جليلة وخصال تربوية نبيلة، استعرض القرآن الكريم وقائع القصة بصورة تهز النفوس وتوقظ الضمير مدّونة دروس العبر، غير أن مشهد النزاهة وصورة العفة أكثر ما يلفت النظر ويأخذ باللب ويسيطر على الشعور.

يتعرض نبي الله يوسف عليه السلام في قصر العزيز لمحنة عظيمة من جميع الجوانب، ولمواجهة عصيفة، وتبسط له المغريات على بساط من لذائذ، ففي يوسف عليه السلام الدوافع: من الرجولة والشباب والجمال، وفي امرأة العزيز إغراءات: إثارة منصب مال جمال، دعوة وخلوة تامة لا صخب فيها، يتبع ذلك تهديد لا تهاون فيه إن لم يستجب، ثم تظهر في يوسف عليه السلام

---

[1] صحيح البخاري جـ١١٩/٤، صحيح مسلم جـ١٠١٨/٢.

فضيلة العفة بمقاومة الدوافع والمغريات بإصرار وعزيمة قوية، فيضبط نفسه بصبر أولي العزم من الرسل، وينتصر على النفس والشيطان والهوى ترفعا عن الخيانة وطلبا لمرضاة الله وسترا على الأعراض حتى ولو على حساب النفس والكرامة، فكم زلت الأقدام لولا العصمة الإلهية في أقل من مثل هذه الحادثة !، وكم انتصر الشيطان في أبسط من مثل هذه المغريات!، وكم وقع المسترخصون للأعراض في محارم الله!، وكم وقع المتهاونون بحمى الله فانتهكوا حدوده وموانعه!، وكم هلك في مثلها المجترئون على حرمات الله!، لكن يوسف عليه السلام يحقق المثل الأعلى في موقف حرج، ليكون درسا وعبرة لكل شاب وشابة في كيفية ضبط النفس بمقارعة الشيطان ومقاومة الهوى، وكيفية الاعتصام بالله تعالى من الوقوع فيما حرمه الله، فاستحق عليه السلام التتويج والشرف ، فقال فيع عز شأنه : ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين﴾ (يوسف:٥٦) [1] هذا في الدنيا، أما في الآخرة فقد قال صلى الله عليه وسلم: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله- من ذلك- ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله) [2].

المبحث الخامس: العفة عن الأيمان.

اليمين هو: عقد القلب على فعل الشيء، أو هو إشهاد الله على ما في القلب، أو تقوية أحد طرفي الخبر بذكر الله تعالى أو التعليق [3].

هذا، وقد شدد الإسلام في مسألة الوفاء بالأيمان، لأنها قاعدة الثقة وعنصر الضمان التي بدونها تتهدم الأمم وتضيع الذمم وتذوب العقود، وحذر من

---

١ انظر الأخلاق الإسلامية وأسسها جـ٢/٥٨٢-٥٨٣.

[2] صحيح البخاري جـ٢/١٤٣، صحيح مسلم جـ٢/٧١٥.

٣ التعريفات للجرجاني (٢٣١).

عاقبة ذلك في زعزعة دعائم الحياة الاجتماعية وفي زعزعة العقائد والارتباطات والمعاملات فقال : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (النحل:٩١)، ويشمل الوفاء بعهد الله جميع العهود والمواثيق والمبايعات وكل عهد على معروف يأمر به الله خاصة فيما ترتبط به مصالح الناس، وعدم توقير اليمين يعد من زلات الضمير واللسان، والواجب ضبط اللسان وعقد القلب في مسألة اليمين وعدم الاستهتار أو التلاعب به، سواء أكان جادا أم هازلا، كجعل اليمين بالله وسيلة للمكاسب الدنيوية، أو الخروج من المحن، أو التنصل والتخلص من الواجبات والحقوق المترتبة، أو المخادعة والمتاجرة بها: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ (المائدة:٨٩) ولقد نهى الله عن اتخاذ الأيمان للغش والخديعة وبث الطمأنينة الكاذبة للحصول على منافع قريبة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (البقرة:٢٢٤) أي: لا تجعلوا الله معرضا لأيمانكم فتبتذلونه بكثير الحلف به، كمن يكثر الحلف في البيع والشراء وفي الصنعة والكسب والدرجة وهو كاذب، وأشد ذلك كلها الأيمان الكاذبة، قال تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (الحج ٣٠) ، والزور: الكذب لكونه يميل بصاحبه عن الحق [1] حتى وصفها الإسلام باليمين الغموس لكونها تغمس حالفها في نار جهنم.

وفي المقابل وجه الله عباده بقوله : ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ (المائدة ٨٩)، ومن تعظيم الله تعالى لليمين تشريع الكفارة على الحنث فيه؛ فقال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ

[1] مفردات ألفاظ القرآن للراغب (زور).

مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾ (المائدة:٨٩)

وتوعد الله من يتخذ اليمين وسيلة لمكاسبه وقضاء حوائجه كمن يقسم وهو يعلم أنه مخادع فلا تثبت له قدم ؛ فقال عز شأنه : ﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم، ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (النحل:٩٤).

الفصل الثالث: ركائز العفة.

الركائز جمع ركيزة وهو: الأساس والمعتمد، سمي بذلك لكونه موضع القرار والثبات الذي تتوازن عنده القوة وتتشعب منه الفروع، ومنه نقطة ارتكاز للجيش: قاعدة عمله، والمقصود من ركائز العفة هي حقائق التشريع الإسلامي الثابتة التي لا تقبل منذ نزولها على رسول الله صلى الله عليه وسلم تغييرا ولا تبديلا وتبقى قائمة بقيام الساعة ، لكونها تمثل ضرورة بشرية كضرورة الغذاء، وقاعدة أساسية لكل ما يتفرع عنها من أسباب السلامة البشرية، وتبقى هي في أصلها واضحة جلية لا تعتريها زيغ أو انحراف، غير أنه يضاف إليها فروع أو توضيح حسب متطلبات العصر ومقتضياته ، وحاجة البشر من حيث درجة اتصالهم بالعلم والفهم إلى تجديد تلك الحقائق الإسلامية بما فيها ركائز العفة، إضافة إلى دلائل الفطرة والحس التي توقظ في الإنسان أهمية الاعتناء بركائز العفة.

بالنظر إلى تفاوت دواعي الرغبات النفسية ودوافعها نجدأن قوة شهوة الفرج ـ لقوة الباعث عليها ــ تبقى معتلية غالبة على جميعها، وتأتي قوى النفس وأهميّة تهذيبها في تهذيب شهوة الفرج ، وهذه القوة من شأنها التحكّم بقرارات الإنسان وبمصيره في الدارين، والإنسان مأمور بالتوازن تجاه هذه الشهوة بين الإفراط والتفريط لردّها إلى الاعتدال، وهذا من مقتضيات سلامة العقل والشرع الشريف، وهذه الركائز هي:

المبحث الأول: عفة الفرج.

تعتبر شهوة الفرج لقوة الباعث عليها من أقوى الشهوات ، وهي مدخل واسع للشيطان والنفس والهوى، وكثيراً ما يضعف الإنسان أو يعجز عن الصبر

عنها أو مقاومتها، فحينما يقع الإنسان فيها دون اتزان يتناسى عواقبها الوخيمة، فيفقد مقومات إنسانية يتبعها انهيار الدول وزوال الحكومات، حينئذ يتسم الإنسان لفقده الوعي والبصيرة بسمة البهيمية، مع ذلك لا تخلو بواعث الشهوة من حكم وأسرار إلهية كدوام النسل وحفظ البدن، وهذا ما يجعل ردها إلى ميزان الاعتدال كي تتحقق غايتها من زكاة النفس والحياة الطيبة، أما حينما لا تُهذّب فتأخذ ذلك الطابع المشين، عندئذ يستوجب أن تأتمر بأوامر العقل والشرع لتُصبح عفيفة تستحق أن تعنون بعنوان العفّة.

ويشمل عفة الفرج عن جريمة الزنا : التعفف عن دواعيه ومقدماته وكل ما من شأنه أن يؤدي إليه ، قال تعالى: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ (المؤمنون 5- 7) وجاء التركيز القرآني على عفة الفرج لكونه من أعظم مغاليق المخالفات، فإذا عفّ الفرج كفي الإنسان أكثر أسباب المخالفات، إلا أن ذلك يحتاج إلى مغالبة نفسية وإرادة صلبة كبيرة، لذلك كان عفاف الفرج أفضل من كثير من الملكات، بل الإسلام يسد أبواب الفساد بطرق أوسع، ومن ثم انصبت معظم وصايا القرآن الكريم ووصايا الرسول صلى الله عليه وسلم على حفظ العورات، قال صلى الله عليه وسلم لعلي رضى الله عنه: (لا تُبرز فخذك) [1] لا سيما الفرج، وعبر بالحفظ: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ والحفظ: تعاهد الشيء بالإمساك والصيانة والرعاية والحراسة، وهذا كله أبلغ في التعبير من مباشرته، قال صلى الله عليه وسلم: (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة) [2] في الحديث:

---

[1] سنن أبي داود جـ١٩٦/٣، السنن الكبرى للبيهقي جـ٣٨٨/٣، وانظر: تحفة الأحوذي جـ٦٥/٨.

٢ صحيح البخاري جـ٣٠٨/١١.

(اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ - وفيه -: (وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ) [1] وسئل صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال: (الفم والفرج) [2] وإذا غالب الإنسان رغباته المردية وأسباب الفتنة دل ذلك على عمق إيمانه.

المبحث الثاني: عفة النظر.

البصر نعمة ومنّة إلهية عظمى، مصدر سعادة في الدارين، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ (النحل: ٧٨) وقد وصف الله عيني الإنسان بحبيبتيه ، فقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله قال إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة يريد عينيه) ٣ وجعل فقدانها قرين فقدان الدين، قال صلى الله عليه وسلم: (ما ابتلي عبد بعد ذهاب دينه بأشد من ذهاب بصره ، ومن ابتلي ببصره فصبر حتى يلقى الله لقي الله تعالى ولا حساب عليه) ٤ وهذا يدل على أن مثل هذه النعمة العظيمة تستحق الحفظ والعناية، كما أمر تعالى في قوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ (النور: ٣٠-٣١) ، فإذا حاسب العبد نفسه مستحضرا قول الله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: ٣٦) بقى في مأمن من محاسبة الله ، قال صلى الله عليه وسلم:

---

١ صحيح ابن حبان جـ٥٠٦/١، مسند أحمد جـ٣٢٣/٥، المستدرك للحاكم جـ٣٩٩/٤، سنن الكبرى للبيهقي جـ٢٨٨/٦.

٢ سنن الترمذي وقال: صحيح غريب جـ١٢٠/٦، صحيح ابن حبان جـ٢٢٤/٢، المستدرك للحاكم جـ٣٦٠/٤.

٣ صحيح البخاري جـ١١٦/١٠.

٤ قال الهيثمي: رواه البزار في مسنده جـ٣٠٨/٢، وانظر: فتح الباري جـ١١٦/١٠.

(النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة، فمن تركها من خوف الله أثابه جل وعز إيمانا يجد حلاوته في قلبه١.

وعفة النظر يشمل كل ما يقع عليه البصر مما حرم الله ومنع من استطالته إليه، وأعظم ذلك استدامة النظر إلى مزالق الأقدام، قال صلى الله عليه وسلم لعلي: (يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة) ٢ ولما كانت النظرة المتكررة إلى المرأة وسيلة لإثارة شهوات الرجل توقعه فيما حرمه الله تعالى عليه ، لذا جاء التوجيه النبوي: (اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ - وفيه -: (وغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ) ٣ كما نهى الإسلام عن النظر إلى العورات ؛ فقال صلى الله عليه وسلم: (لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة) ٤ ، وتعدى المنع فشمل حتى مع المثلية التي لا تشتهي مثيلتها طبعا، قال صلى الله عليه وسلم: (لا تباشر المرأة المرأة فتصفها لزوجها كأنه ينظر إليها) ٥ ، وإطلاق البصر إلى ما حرم الله تعالى يعمى القلب، ويضعف البصيرة، وتتسبب في الوقوع في الرذائل، وهو طريق إلى فساد المجتمع، كل هذا الحرص من الإسلام لأجل سد الذرائع والأسباب المفضية للفساد، ولا شك أن غض البصر دليل على عمق الإيمان في القلب، قال صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا ترى أعينهم النار - وفيه -: (وعين كفت عن محارم الله) ٦ ، ومن هنا فقد انصبت تعاليم الإسلام لإبتعد الإنسان عن احتمال وقوع خطأ أو يتجاوز حدود الله، وهكذا يكتشف الباحثون صدق قول

---

١ المستدرك للحاكم جـ٣٤٩/٤، المعجم الكبير للطبراني جـ١٧٣/١٠، مجمع الزوائد جـ٦٣/٨.

٢ سنن أبي داود جـ٢٤٦/٢، سنن الترمذي جـ٥٠/٨، المستدرك للحاكم جـ٢١٢/٢.

٣ صحيح ابن حبان جـ٥٠٦/١، مسند أحمد جـ٣٢٣/٥، المستدرك للحاكم جـ٣٩٩/٤، سنن الكبرى للبيهقي جـ٢٨٨/٦.

٤ صحيح مسلم جـ٢٦٦/١، المستدرك للحاكم جـ٢٦٠/١.

٥ صحيح البخاري جـ٣٣٨/٩.

٦ المعجم الكبير للطبراني جـ٤١٦/١٩.

النبي صلى الله عليه وسلم في غض البصر. ويمكن علاج أمراض خطيرة ومشاكل عويصة بمجرد غض البصر وحفظ الفرج وقول الكلمة الطيبة، وهنا نلمس السر القرآني في ترتيب الجوارح على هذا النمط، قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء ٣٦) ، وذلك أن اللسان إنما ينطق بعد الإبصار، واللسان هنا إما أن يثبت أو ينفي، وقد قيل:

نظرة، فابتسامة، فسلام ، فكلام، فموعد، فلقاء.

المبحث الثالث: عفة اللسان.

اللسان آية ونعمة من الله ، يعبر به الإنسان عما يدور في خاطره وخلده ، وينوب عنه في التقرير والتحرير والتحوير ، له في الخير والشر مجال واسع ، يقود صاحبه إما إلى الجنة أو إلى السعير، فهو أقوى الأعضاء على الإنسان وأعظم وسيلة لتدميره ، وإذا كانت الجوارح لها عمل محدد مخصوص[1] فإن اللسان مع صغر حجمه يقود الإنسان إلى أنواع المعاصي ، لذا قال صلى الله عليه وسلم: (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة) [2] وبين صلى الله عليه وسلم مزالق اللسان وسقطاته وعثراته قائلا: (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها - أي يتأمل ويتفكر فيها - يزل بها إلى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب) [3] وهي تعني كما قال الراغب: الزال والهلاك الذي يعقب الزلل [4] وموارد الهلاك، وتستوقف به مواقف حرجة: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النور:٢٤) وقال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق:١٨) نسب الزال إلى اللسان لكون زلاته وسقطاته سببا في هلاك الإنسان، وليس لعثراته حد أو ضابط أو شكل

---

١ كالعين يقتصر عملها على المشهود، والأذن على المسموع، واليد على الملموس.
٢ صحيح البخاري جـ١١/٣٠٨.
٣ صحيح البخاري جـ١١/٣٠٨، صحيح مسلم جـ٤/٢٢٩٠.
٤ انظر: مفردات ألفاظ القرآن للراغب (٣٨٢).

تنحصر فيه، منها ما أنكره أهل الحجا منذ القدم تمشيا مع تعاليم الإسلام ومع نزاهة النفوس كالقذف، وقد يُستهتر بالقذف حتى يصبح مزاح الكلام ودعابة الألسنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النور:٢٣) وقد ينطلق بالتهم والبهتان عند بعض المستهترين وسيلة التشفي والانتقام، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (النساء:١١٢) وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (الأحزاب:٥٨).

وقد يورط اللسان بعض الناس دون مبالاة إما جهلا أو استهتارا، كسب الدين أو لعن شريعة سيد المرسلين، أو كالاستهزاء بالإسلام وبالمسلمين، قال تعالى حكاية عن المنافقين: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ، وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (التوبة:٦٤- ٦٥) وقال تعالى حكاية عن أهل النار: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ (المدثر:٤٥) أو كقول الزور وشهادة الزور، وبعض الجهلة المرتزقة يراه مصدر كسب أو رد جميل، قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (الحج ٣٠) وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (الفرقان:٧٢) وقال صلى الله عليه وسلم: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئا فجلس فقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور ألا وقول الزور وشهادة الزور)[1].

---

١ صحيح البخاري ٢٦١/٥.

أما الغيبة والنميمة واللعن والسباب فغدت فاكهة المجالس وقهوة الاجتماعات، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾ (الحجرات:١٢)، وبعضهم يراها حقا يستقضيه من الآخرين، قال صلى الله عليه وسلم: (أتدرون ما الغيبة ؟) قالوا الله ورسوله أعلم، قال: (ذكرك أخاك بما يكره) قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول، قال: (إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته) [١]، وقال صلى الله عليه وسلم: (ليس المؤمن ليس بالطعان ولا باللعان ولا الفاحش ولا البذيء) [٢] ،وقال صلى الله عليه وسلم: (إن العبد إذا لعن شيئا صعدت اللعنة إلى السماء فتغلق أبواب السماء دونها ثم تهبط إلى الأرض فتغلق أبوابها دونها، ثم تأخذ يمينا وشمالا، فإذا لم تجد مساغا رجعت إلى الذي لُعن فإن كان أهلا لذلك وإلا رجعت إلى قائلها) [٣].

وفي مقابل ذلك يبين صلى الله عليه وسلم أنه لا نجاة للعبد إلا بالتعفف بإمساك لسانه إلا في الخير، قال صلى الله عليه وسلم: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت) [٤] ، أوصى صلى الله عليه وسلم أحد أصحابه قائلا: (لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله) [٥] ، ونصح صلى الله عليه وسلم عقبة بن عامر رضى الله عنه حين سأله عن النجاة، فقال له: (أمسك

---

١ صحيح مسلم جـ٢٠٠١/٤.

٢ مسند أحمد جـ٤٠٤/١، المستدرك على الصحيحين، صحيح على شرط الشيخين جـ٥٧/١.

٣ سنن أبي داود جـ٢٧٧/٤، قال ابن حجر: وسنده جيد فتح الباري جـ٤٦٧/١٠.

٤ صحيح البخاري جـ٣٠٨/١١.

٥ سنن الترمذي وقال: حديث حسن غريب جـ٣١٥/٩، المستدرك على الصحيحين قال الحاكم: صحيح الإسناد جـ٦٧٢/١.

عليك لسانك وليسعك بيتك، وأبك على خطيئتك) [1] ، ويوجه صلى الله عليه وسلم كل فرد ويرسم له طريق السلامة في الحياتين والسعادة في الدراين قائلا: لمعاذ رضى الله عنه: (كف عليك هذا) قلت يا رسول الله: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟، فقال: (ثكلتك أمك !، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم) [2]. ومن حصائد اللسان إبرام العقود ونيل العوائد المالية بالإيجاب والقبول، كلها عناصر مسخرة لكفاية البطن.

المبحث الرابع: عفة البطن.

البطن كما هو وعاء الطعام والشراب فهو أيضا مستودع لانبعاث المخالفات، قال صلى الله عليه وسلم: (ما مَلأ آدميٌّ وِعَاءً شرًّا من بطنٍ بحسب ابن آدم أُكلاتٌ يُقمن صُلبه فإن كان لا محالة فثلثٌ لطعامه وثلثٌ لشرابه وثلثٌ لنفسه) [3] ، وذلك لأن في قلة الطعام صلاح البدن وصحته، وصفاء القلب ورقته، وقد شبه الله تعالى أقواما قست وعمت قلوبهم يأكلون دون حساب أو مبالاة أو إدراك بالبهائم ؛ فقال: ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾ (محمد:١٢) إذ إن امتلاء القلب يفضي إلى فساد القلب وقسوته ، ومنه يكون الفرح والمرح والبطر والأشر والضحك والكبر والغرور، فيسري فساده إلى فساد في الدين والدنيا فيكون شرا، وعكسه قلة الغذاء فإنه يورث رقة القلب، وقوة الفهم، وانكسار النفس، وضعف الهوى والغضب، ومصداق هذا ما حكي أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام، فرأى عليه معاليق من كل شيء، فقال له يحيى: يا إبليس ما هذه المعاليق التي

---

[1] سنن الترمذي وقال: حديث حسن جـ٨٧/٧، وانظر فتح الباري جـ٣٠٩/١١.

[2] سنن الترمذي وقال: حديث حسن صحيح جـ٣٦٢/٧، المستدرك على الصحيحين قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين جـ٤٤٧/٢.

[3] سنن الترمذي وقال: حسن صحيح جـ٤٣/٧، صحيح ابن حبان جـ٤٤٩/٢، المستدرك للحاكم جـ١٣٥/٤.

أرى عليك؟ قال: هذه الشهوات التي أصيب من بني آدم، قال: فهل لي فيها شيء؟ قال: ربما شبعت، فثقلناك عن الصلاة وعن الذكر، قال: فهل غير هذا؟ قال: لا، قال: لله علي أن لا أملأ بطني من طعام أبدا، قال: فقال إبليس: لله علي أن لا أنصح مسلما أبدا [1].

وإنما غالب أسباب الذنوب مصدرها أحد أمرين: شهوة البطن، وشهوة الفرج، فلأجل شهوة البطن يغامر الإنسان ويمتطي وسائل الاحتيال، وعلى حسابه يقطع ويصل ويمنح ويمنع، يكتسب الجشع والشراهة، كلها ذنوب حسية ومعنوية ناشئة من شهوة البطن، لذلك جاء التوجيه القرآني متجها إلى تخصيص الأكل ليحاسب الإنسان ما يدخل بطنه وما عداه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ١٨٨) ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء ١٠)، وقال صلى الله عليه وسلم: (أربع إذا ما كن فيك فلا عليك مافاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة ، وعفة طُعمه) [2] ، وقال صلى الله عليه وسلم: (إن أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم، ومضلات الهوى) [3]، لكون طعمة البطن إما أن تنبت الطيبات أو الخبائث، ويتلخص من هذا أن عفة البطن تعني حبس النفس على ما أحله الله، والامتناع عن تجاوز ما منعه الله، واعتبر الشرع هذه العناصر بقيمه الحكيمة

---

[1] شعب الإيمان للبيهقي جـ٤١/٥، جامع العلوم والحكم جـ٤٢٧/١.

[2] المستدرك للحاكم جـ٣٤٩/٤، تفسير ابن كثير جـ٥٢٥/٣، مجمع الزوائد قال: وإسناده حسن جـ١٤٥/٤.

[3] المعجم الصغير للطبراني جـ٣٠٩/١، مسند أحمد جـ٤٢٠/٤، مسند البزار جـ٢٩٢/٩، مجمع الزوائد جـ١٨٨/١.

ركائز العفة لكونها تستأصل منابت الرذائل وتحجم عن الوقوع فيها، بالتالي ينبعث عنها تنامي روح العفة.

الفصل الرابع: من تطبيقات الحياة العملية للعفة

كم تمر بحياة الإنسان من وقائع ومناسبات مؤثرة ، أو من تجارب وأحداث زاجرة، وكم تعصف به من الأعاصير المتقلبة، وكم تميل به من أهواء، وكم يقاوم ويعارك شهوات النفس والشيطان وقد قيل: العاقل من اعتبر بغيره، والحصيف من تعلم من تقلبات الزمان، غير أن الحادثة المرتبطة بالأسباب والنتائج المتعلقة بأمور الشرع لها تميز مغاير، كتطبيق العفة في الحياة العملية في ظل القرآن الكريم الذي تستقيم به الحياة ويحسن به العمل، ويكتسب العبد الرضا سواء في دنياه أو في آخرته: ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ (النحل:٩٧).

والحياة الطيبة حق من حقوق البشر وهي مرهونة بوجود حياة سعيدة بمقومات البقاء، وهذا يقتضي توفر عناصرها، كالأمن والاستقرار، والتعايش الطيب بكل عناصره، وتعد العفة من أهم عناصر الأمن والاستقرار والتعايش الطيب، بل لا تقل ضرورة وحاجة منه، بل لا تطيب وتتأتى عبادة أو مطالب حياة اجتماعية على وجهه إذا فقدت العفة، فهي الثوب الساتر على رذائل الأخلاق وقبائح الأفعال، وهي السياج المانع الذي يحجب البشر عن الشر، وتحرك فيهم أسمى طرائق الخير وهو تصور الثواب والعقاب على الأعمال، وتملأ الأنفس بالفضائل وتحجبها عن الرذائل: ﴿يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ (التوبة ٧١) فتستقيم الأمور في المجتمع ويسوده النظام، ولا أدل على ذلك من مجتمع عصر النبوة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

ذلك المجتمع الذي ضرب أعلى مثل في تطبيق العفاف حتى بلغ ذروته، وكم في التاريخ من أمثلة وصور حية تشهد لذلك حتى غدت موضع إعجاب.

وبالعكس حين يعدم الشعور بأهمية العفاف ويحل الانحلال وينحدر الناس إلى مهاوي الافتلات، ويُعدموا تصور الثواب والعقاب على الأعمال، فيعم التسابق في الشر والفوضى انهماكا في الشهوات وانغماسا في لذائذ الدنيا، وانطلاقا وراء أهواء النفس الجامحة دون رقيب أو وازع، فتختل موازين الحياة ويستحوذ الشر على النفوس، ويبقى الأمر والنهي والإقدام والإحجام منقادا لهوى النفس والمصالح الشخصية، والأنفس البشرية مهما علت وسمت فإنها بطبيعتها قاصرة عن إرساء قواعد الفضيلة وتأصيل أصول الخير.

ولا أدل على ذلك من الأمم المادية التي تنكرت للعفة وآمنت بالمادة مبدأ ونهاية، وصاغت بأهوائها ومن تجاربها ونظرياتها المادية قوانين تحكم حياتها وتنظم شئونها، وإن كان قد نجحت في بعض الأمور إلا أنها- بسبب انفلاتها- قد غرقت في شهواتها، وانعكست آثارها على العالم بالشر المستطير، فكانت مدعاة لمفاسد كثيرة تأباها الإنسانية حتى انطبق عليها قوله تعالى: ﴿يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف﴾ (التوبة ٦٧) وقوله تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون﴾ (القصص:٤١) حتى غدا العالم ينشد خُلُقا يأخذ بيده من هذا المنحدر وينقذه من هذا الخطر، ولا يزال يبقى المنقذ من هذا الخطر المستطير هو إنماء روح العفة في الشعوب.

ومن بعض عناصر هذه الحياة التطبيقية الطيبة ما يلي:

المبحث الأول: إذكاء روح العفة.

لقد أودع الله في الإنسان بطبيعة خلقته خصالا حميدة وسجايا نبيلة، تنمو وتضعف بعوامل بمقدار تعهده وتفقده لها: ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في

﴿البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ (الإسراء:٧٠) ، ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ (التين:٤) ،ومنها خُلق العفة، فهي إما خصلة جبلية أو مكتسبة، وفي جميع الأحوال تنمو وتقوى وتضعف بعوامل.

ومن أسباب إنمائها:

أ- طيب المطعم والملبس، فهذا أساس في تأصيل الأخلاق الطيبة بما فيها العفة، فإن المنبت الطيب يثمر خيرا في جميع المناحي، قال تعالى: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾ (المؤمنون 51) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: تليت هذه الآية عند النبي صلى الله عليه وسلم ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾ (البقرة ١٦٨) فقام سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه فقال يا رسول الله: ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال: (يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به) [1] وقال صلى الله عليه وسلم: (أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة في طعمة) [2].

ب- اجتناب الشبهات والمعاصي، فإن لها شؤماً تصيب القلب بالغفلة ، وتطمس فيه نور البصيرة، ويعدم التمييز بين الخير والشر فلا يتجه بعد ذلك إلى الخير: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾

---

[1] انظر تفسير ابن كثير جـ٢٠٤/١.

[2] المستدرك للحاكم جـ٣٤٩/٤، تفسير ابن كثير جـ٥٢٥/٣، مجمع الزوائد قال: وإسناده حسن جـ١٤٥/٤.

(المطففين:١٤) وقال صلى الله عليه وسلم: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) [١].

ج- تطهير القلب وصقله وتغذيته بذكر الله وحمايته عما يصرفه عن أسباب الخير، حتى يستشعر عظمة الله ويستحضر الخوف والحياء منه في كل زمان ومكان،أخبر تعالى عن يوسف عليه السلام حين عرضت عليه الفاحشة : ﴿قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون﴾ (يوسف ٢٣) على قول: أن المراد بـ{ربي} في الآية هو الله أي: إن الله تولاني بلطفه فلا أرتكب ما حرمه [٢] ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ (يوسف ٢٤) ﴿وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ (يوسف ٥٢).

د- استحضار فضل المنعم المتفضل، وأولى وأجلّ ذلك ربنا سبحانه وتعالى، ثم خلقه الذين لهم أفضال، قال صلى الله عليه وسلم : (من لم يشكر الناس لم يشكر الله) [٣] فإن نكران الجميل لؤم وكفران النعم نذالة، وما أبرّ ما قال يوسف عليه السلام : ﴿ معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون﴾ على قول: أن المراد بـ{ربي} في الآية هو العزيز، أي: أن سيدي الذي رباني وأحسن مثواي ووصاك بي: ﴿أكرمي مثواه﴾ فكيف أخونه في أهله وأجيبك على ما تريدين من ذلك ؟ [٤].

---

١ صحيح البخاري جـ١/١٢٦، صحيح مسلم جـ٣/١٢١٩.

٢ فتح القدير للشوكاني جـ٣/١٧.

٣ سنن الترمذي وقال: حديث حسن صحيح جـ٦/٨٧.

٤ فتح القدير للشوكاني جـ٣/١٧.

هـ- الاعتناء بالتربية النفسية التي تنمي في القلب ملكة الصبر والإباء والغيرة، ومجاهدة النفس بمقاومة شهواتها ورغباتها ، وكذا بمقاومة مكايد الشيطان وحيله ، قال تعالى : ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ (العنكبوت:٦٩) ، والاهتمام بالتربية الفكرية السليمة التي تغرس المفاهيم والقيم الأخلاقية في المجتمع المسلم ، وتحذير من أسباب الانحراف الخلقي ، مع التبصر بخطط المفسدين ومكائدهم.

و- توجيه رغبات النفوس إلى الاستمتاع بالمباح ، كالزواج والتعدد فيه، إلى جانب مغالبتها على شهواتها ورغباتها وكبح جماحها بتذكيرها بالمصير المحتم: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى﴾ (النازعات:٤٠) لا سيما بالصيام فإنه يضيق مجاري الشيطان قال صلى الله عليه وسلم: (من استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) [١].

ز- التذكير بأهمية العفة، وسبل تحقيقها .وقد رسم لنا صلى الله عليه وسلم نموذجاً لذلك ، فقد أتى النبي صلى الله عليه وسلم شابٌ فقال: يا رسول الله: ائذن لي بالزنى، فأقبل القوم عليه فزجروه ، وقالوا: مه مه ، فقال: (أدنه) فدنا منه قريبا ، فقال: (اجلس) فجلس ، فقال: (أتحبه لأمك)، قال : لا ، والله جعلني الله فداك، قال: (ولا الناس يحبونه لأمهاتهم) ، قال: (أفتحبه لابنتك) قال: لا ، والله يا رسول الله جعلني الله فداك، قال: (ولا الناس يحبونه لبناتهم) ، قال: (أفتحبه لأختك) ، قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: (ولا الناس يحبونه لأخواتهم) ، قال: (أفتحبه لعمتك) ، قال :لا والله جعلني الله فداك، قال: (ولا الناس يحبونه لعماتهم) قال: (أفتحبه لخالتك) قال :لا والله جعلني الله فداك، (قال :ولا الناس يحبونه لخالاتهم)

---

[١] صحيح البخاري جـ١١٩/٤، صحيح مسلم جـ١٠١٨/٢.

[1] وأخذ رسول الهدى صلى الله عليه وسلم يستعرض له المحارم ويجيبه الشاب بالنفي حتى أقنعه صلى الله عليه وسلم بخطئه وأفهمه أن أعراض المسلمين مشتركة ، فمن اعتدى على عرض أخيه المسلم فقد اعتدى على عرض نفسه. وحرمةُ الاعتداء سواء على عرض الإنسان نفسه أو على عرض غيره واحد، يا له من درس نموذجي حيّ !.

ح- الدعاء أوقات الرغائب بحفظ النفس والثبات على الهداية، والتقرب إلى الله بالنوافل ؛ فإنها تملأ القلب محبته وهذا يوجهه إلى مرضاته، قال صلى الله عليه وسلم : (يقول الله تعالى: وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه) [2] مع العزيمة في مواجهة المغريات المردية في زمن يُسرت فيه سبل الغواية، وصدق صلى الله عليه وسلم وهو يصف آخر الزمان: (دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها) [3].

ط- توعية المجتمعات ببيان فضيلة العفة وما يترتب عليها من عزّ في الدنيا، وعلى منابر من نور في الآخرة، قال صلى الله عليه وسلم: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله- من ذلك- ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله) [4] والتحذير من عواقب من استهان أو تجاوز حد العفاف.

ي- القدوة سواء من الوالدين أو من المجتمع، قال تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ (الأحزاب ٢١) وقال صلى الله عليه وسلم: (من

---

١ مسند أحمد جـ٢٥٦/٥، تفسير ابن كثير جـ٣٩/٣، قال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد جـ١٢٩/١.

٢ صحيح البخاري جـ٣٤١/١١.

٣ صحيح البخاري جـ٣٥/١٣، صحيح مسلم جـ١٤٧٥/٣.

٤ صحيح البخاري جـ١٤٣/٢، صحيح مسلم جـ٧١٥/٢.

دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا) [1] وهي تثمر ثمارا طيبة في جميع مناحي الحياة.

المبحث الثاني

من ثمرات العفة

لا يعرف فضل العفة إلا من ذاق مرارة الانفلات والتسيب، ولم يذق طعم العفة إلا من عاشر المجتمعات المنحلة التي وأدت القيم، فكم قتل الفجور آمال الأمة، وكم وأد الانفلات من كنوز الأمة، وكم قامت الثورات الدموية بسبب اندثار العفاف، وكم خيّم الفقر بذُلّه بسبب التعدي على العفة، ولو لم تجتن الأمة من العفة سوى أنها تُكفَى غضب الله ونقمته لكفَى، وإن مما يُجتنى من ثمرات العفة :

أ- تنامي روح الشهامة والغيرة التي يُنال بها الثناء والمجد في الدنيا والآخرة وتقود إلى الارتقاء في سماء الفضيلة، ونقاء المجتمع وطهارته من المفاسد وصيانته من الآثام والرزايا والمصائب والعقوبات الربانية، وسلامته من أضرار الخبث و الفواحش، وتقي من والوقوع في حضيض الشهوات والرذيلة.

---

١ صحيح مسلم جـ٤/٢٠٦٠.

ب- الفلاح والفوز بثناء الله تعالى وبالجنات والنعيم المقيم قال تعال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ، أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (المؤمنون : ١-١١) وفي مقابل ذلك السلامة والنجاة في الدنيا من الأحزان والهموم، وفي الآخرة من نار السموم، قال صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا ترى أعينهم النار: عين حرست في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله، وعين غضت عن محارم الله [1].

ج- تزكية النفس وكمالها وعزها وطيبها وانشراحها: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ (النور ٣٠) وحفظ الأمن والأعراض، قال صلى الله عليه وسلم: (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة) [2] وهذا من جوامع كلامه صلى الله عليه وسلم فإن عفة اللسان والفرج صيانة للمجتمع، بل هما أساس جميع المنجيات .ومن أجل ذلك جاءت وصايا القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة منصبة على الأمر بحفظ اللسان الفرج.

المبحث الثالث

عوامل ضياع العفة

ركبت في الإنسان بطبيعة خلقته شهوات ورغبات، وهي بمثابة نوازع ودوافع ضمانا لبقاء حياة البشر وقيام الكون: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ

---

[1] سنن البيهقي جـ١٤٩/٩، وانظر تفسير ابن كثير جـ٢٨٣/٣.

٢ صحيح البخاري جـ٣٠٨/١١.

لفسدت الأرض﴾ (البقرة ٢٥١) ، وقال: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾ (الحج ٤٠).

وإن النفس بطبيعة جبلتها تميل إلى الشهوات، وتتثاقل التكاليف الشرعية: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ (آل عمران:١٤) وقال صلى الله عليه وسلم: (حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات) [1] أي: أن سبب دخول النار ارتكاب الشهوات المحرمة ؛ لأنها محفوفة بها لسيطرة الشيطان عليها ، والنفس لما جبلت عليه تميل إليها، وأن الجنة لا يتوصل إليها إلا باقتحام المكاره، كالاجتهاد في العبادات والصبر على مشاقها والصبر عن الشهوات، والتعفف بضبط هذه الشهوات بضابط الشرع والتغلب عليها ، وهذا مما تتثاقله النفس[2]، ولولا ذلك لكان الناس كالملائكة عصمة واستقامة، ولما ظهر التفاضل بين البشر: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ (السجدة ١٣) وقال تعالى: ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور﴾ (الملك ١) أي: أقوم وأصوب عملا، فإذا أهمل الناس أهمية إخلاص الأعمال وتناكروا وضيعوا العفة وقعوا في أسباب الهلاك، وضاعت المجتمعات وحل في ديارها أسباب المقت والفرقة والضياع، مل يعجز أهل الرأي والحجا عن تدارك ذلك.

---

١ صحيح البخاري جـ١١/٣٢٠، صحيح مسلم جـ٤/٢١٧٤.

٢ انظر شرح مسلم للنووي جـ٥/٦٨٧، تلبيس إبليس (٢٥).

ويؤدي إلى ضياع العفة أسباب ، وهذه الأسباب إما مباشرة ، وذلك بتشويه صورة القيم والمثل والثوابت كحال المجتمعات الغربية، أو غير مباشرة كانتشار بعض العادات التي تصادم العفة وتزاحمها، وهي كثيرة منها:

١- التساهل منذ البداية في التربية بالقدوة وفي طلب الحياة الاجتماعية الطيبة سواء من الوالدين أو من المجتمع: ﴿والذي خبث لا يخرج إلا نكدا﴾ (الأعراف ٥٨) فإنها من أعظم عوامل الإصلاح أو الإضلال: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ (الأحزاب ٢١) وقال صلى الله عليه وسلم: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا) [١] وقال صلى الله عليه وسلم: (أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة في طعمة) [٢].

٢- فتح أبواب مصادر الانحرافات وتسهيل سبل الوصول إليها، أعظمها المرأة بمسخ صورتها وسلب مكانتها، قال صلى الله عليه وسلم: (ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء)[٣] وكارتياد أماكن الاختلاط لغير ضرورة، وإقامة نوادي وحفلات اللهو والمجون ، وصرف الطاقات من العقول والأوقات والمال والجهود لترويجها.

٣- تحويل بعض نعم الله إلى أداة فساد وتدمير كالإعلام بأنواعه، وترويج وسائل المحرمات والممنوعات وسبل الغواية وطرق الفواحش.

---

١ صحيح مسلم جـ٤/٢٠٦٠.

٢ المستدرك للحاكم جـ٤/٣٤٩، تفسير ابن كثير جـ٣/٥٢٥، مجمع الزوائد قال: وإسناده حسن جـ٤/١٤٥.

٣ صحيح مسلم جـ٤/٢٠٩٧.

٤- تزيين نظم دعاة المفسدين للعقل كالفن وتحرير المرأة، عروض الجمال والأزياء، ومسخ المفاهيم بتقليدهم والإعجاب والانبهار بحضارتهم ومدنيتهم.

٥- تعطيل برامج التوجيه والإرشاد، أو عدم الاكتراث به، أو تقييدها وحصرها في مصب قليل النفع، أو إهمال متابعة المجتمع من حيث إصلاح الاعوجاج والانحراف في حينه.

٦- وضع معوقات أمام اكتساب طرق العفة، كتصعيب أمر الزواج بمختلف الأشكال، بالتالي يتجه أفراد المجتمع إلى طرق معوجة ينتج عنها ضياع العفة.

٧-الرفقة الفاسدة : ، قال تعالى مبينا مآل الصحبة والصداقة المنحرفة : ﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا، يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا﴾ (الفرقان ٢٧- ٢٩) نطق عقبة بالشهادة لسبب فعاتبه خليله أمية فارتد عن الإسلام أرضاء لخليله متغافلا عن مصيره [١] وما أبلغ وأصدق قول النبي صلى الله عليه وسلم: (مثل الجليس الصالح والسوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة) [٢] وقال صلى الله عليه وسلم: (لا تصاحب إلا مؤمنا) [٣].

٨-القيود الشرعية: الإنسان بجبلة خلقته يميل إلى الانفلات من القيود التي تتسم بطابع الثقل على النفس، لكنه بترويض نفسه باستحضار عظمة الله

---

[١] انظر: جامع البيان للطبري جـ٨/١٩.

[٢] صحيح البخاري جـ١٠١/٩، صحيح ومسلم جـ٢٠٢٦/٤.

[٣] سنن أبي داود جـ٢٥٩/٤، سنن الترمذي جـ٦٤/٧، صحيح ابن حبان جـ٣١٤/٢.

على التقيد بأحكام الشرع يصبح شخصية إسلامية، وتبعا لذلك تتكيف شخصيته على كيفية إشباع غرائزه ورغباته، فإذا كانت العقيدة الإسلامية هي الأساس لتوجهاته كانت شخصيته إسلامية ناضجة واعية متميزة منضبطة، حينئذ يُصدر الإنسان الأحكام على أفعاله وأقواله إصداراً صحيحاً وفق أحكام الشرع، فيعرف الحلال والحرام، ويعي جيدا واجباته وحقوقه، فتتأتى منه التكاليف الشرعية أمرا ونهيا عن علم وطواعية، وهذا لا يعني عصمته من الزلات والهفوات، غير أنها لا تأخذ مكانا فتؤثر في توجهه، وكلما استزاد ثقافة شرعية قويت نفسه واستقام توجهه حتى يستولي على تصرفات نفسه، ويكون هواه تبعا لما أنزله الله وبما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ولا يسع بعد ذلك من نطق بالشهادة بربوبية الله وبألوهيته وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم أن يتبع هواه، روي أن عثمان بن مظعون رضى الله عنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أتأذن لي في الاختصاء ؟، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ليس منا من خصي ومن اختصى وإن اختصاء أمتي الصيام) قال: يا رسول الله اتأذن لي في السياحة قال: (سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله) قال يا رسول الله: أتأذن لي في الترهب، قال: (إن ترهب أمتي الجلوس في المساجد لانتظار الصلاة) [1] دل الحديث على التقيد بقيود الشرع في جميع الأحوال، بهذه النظرة الثاقبة تعتبر القيود الشرعية بمثابة صمام أمان للمجتمعات.

[1] الزهد لابن المبارك جـ١/٢٩٠، وانظر التمهيد لابن عبد البر جـ٢١/٢٢٦.

المبحث الرابع

من آثار ضياع العفة

تعي البشرية بفطرتها أنّ العفة صمام أمان لها، وأنها بمنزلة الرأس من الجسد، وأن حاجتها إليها كحاجة الجسد للروح والغذاء والكساء، فبها تصان الأعراض وتحفظ الأموال والأنفس، وتقام موازين العدل وتستقضى الحقوق والواجبات، ناهيك أنها مطلب شرعي واجتماعي تكفل للبشر حياة سعيدة وبقاءا حميدا، ولكونها مطلباً شرعياً فالالتزام بها واجب على كل مسلم ومسلمة، وحين تضيع العفة ويقتل العفاف، تنعكس الموازين وتنقلب المقاييس فيحل بالمجتمعات أنكى عقوبات الله تعالى منها:

١- **غضب الله تعالى:** إذا ضيع الناس العفة غرقوا في أنواع الشهوات وأصناف المعاصي والمخالفات، فأصبحوا عرضة لغضب الله وانتقامه ، قال تعالى في حق أهل الكتاب: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (المائدة:٧٨، ٧٩) وفي هذا إشارة إلى أن من يفعل فعلهم يلحقه هذا الوعيد، فما استحق هؤلاء هذا الذم والوعيد إلا لعدم اتصافهم بالعفة وانهماكهم في المعاصي، والمعاصي إن لم تُمنع تشتد ويستفحل أمرها حتى تعم المجتمع كله .

٢- **كثرة الخبث:** إذا ضعفت العفة بتضاؤل الأخيار وتزايد الأشرار، ظهرت المنكرات والمعاصي وأصبحت فتنة لضعفاء النفوس، وإذا لم تعالج اشتد ساقها وقام سوقها وكثر طالبوها، فيهلك الخير بنماء الشر، وقد تعالج لكن من حيث لا يجدي فيفشو حتى يعم الفساد ويتسلط الأشرار فيصبح المجتمع عرضة للعذاب الشامل، قال تعالى: ﴿قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة:١٠٠) وقال:

﴿ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون﴾ (الأنفال:٣٧) وعن زينب رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم استيقظ يوما من نومه فزعا وهو يقول: (لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا) وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها فقالت زينب: يا رسول الله ! أنهلك وفينا الصالحون ؟، قال: (نعم إذا كثر الخبث) [1].

٣- **تسلط الأشرار**: إذا كثر الخبث اختلت الأمور باضطراب الموازين فتسلط الأشرار- كما هو حال المسلمين اليوم- فيتحول المجتمع إلى فرق وشيع تتنازعها الأهواء، فيقع الاختلاف والتناحر ويعود بعواقب وخيمة بالغة الخطورة ونتائج سيئة أليمة تؤدي إلى هلاك المجتمعات، قال ﷻ: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾ (الأنعام:٦٥) ، وذلك التناحر يجعل المجتمع عرضة للانهيار والانهزام أمام العدو الخارجي المتربص، ولا يحمي المجتمع من التفرق والاختلاف إلا شريعة الله، لأنها تجمع الناس وتحكم الأهواء، وإذا ابتعد الناس عن شريعة الله اتبع كل أمريء هواه وأهواء الناس لا يضبطها ضابط.

وليس بخاف حين ضعفت العفة وتزايدت المنكرات في الدول الإسلامية قديما وحديثا، تحولت عزتهم وقوتهم ومنعتهم إلى ذل وهوان، حتى صار ملوكهم وسادتهم ينادى عليهم في أسواق الرقيق، ثم تسلط اليهود على المسلمين،وحولوا حياتهم إلى جحيم لا يطاق .

ومهما حاولت المجتمعات البشرية والحكومات العالمية، استتباب الأمن والمناداة بالسلام، وخدع الناس بالمغريات المادية، وتوفير صنوف الصوارف

---

١ صحيح البخاري جـ٦/٣٨١.

والملهيات، أو جمع الناس على الكلمات البراقة الخادعة، كوحدة الأديان أو تقاربها أو القوميات وتعدد الأمم، وحوار الثقافات ، فإنه لا يمكن أن يكون سلام إلا بالإسلام والاستسلام لله، وفي الحديث: (ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذ بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويجهروا بما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم) [1]، وما أصاب بلاد الإسلام من الفوضى والخوف والاضطرابات وزوال الأمن وتسلط الأشرار وقهرهم وجبروتهم وإذلالهم للمسلمين، وانتشار الأمراض والفقر وقلة الأرزاق والجدب والقحط، واستيلاء الأعداء لخيرات المسلمين واستبدادهم بمقدراتهم، وما حصل من جهل بالسنن وبالواجبات والوقوع في البدع والمحرمات وانتشار الفواحش والمنكرات، إلا بسبب التقصير في الجانب التثقيفي لبيان أهمية العفة أولا، ثم بسبب تقصير الناس أنفسهم في امتثاله وقسر النفس عليها، فنشأت الأجيال في البلدان الإسلامية- إلا من رحم الله- لا تعرف لله تعالى حدودا وحمى ومحارم.

فعندما ذابت العفة واندثر العفاف في بعض الدول الإسلامية، نتج عنه تقهقر المسلمين في دينهم، فذابت الحمية الإسلامية شيئا فشيئا حتى أصبحوا لقمة سائغة للأعداء، وفريسة سهلة للاصطياد، فإن الاستعمار الغربي ما غزا ديار المسلمين إلا على حين إضاعة المسلمين أو إهمالهم لأهمية العفة والعفاف وتفرقهم على أنفسهم، فما غادروا دولة إلا بعد أن اطمأنوا على تبلد المسلمين واستقرار المنكرات وتمكنها منهم، حتى أخذت طابع المنهج الثابت بحيث تتوارثه الأجيال دون نكير أو اشمئزاز، كالاختلاط والسفور واتخاذ الأخدان وغير ذلك، وهي أمور بمجموعها تطمس البصيرة وتعمي القلب حتى يقسو أو يموت والعياذ بالله.

---

١ سنن ابن ماجه قال البوصيري: صالح للعمل به جـ٣٨٥/٢، المستدرك للحاكم جـ٥٨٣/٤، وانظر مجمع الزوائد جـ٣١٧/٥.

٤- **قسوة القلب:** ولا تقف عقوبة الفجور والبغي عند حد التناحر أو تسلط الأشرار، بل للمعاصي والمخالفات شؤم ووبال على صاحبها وعلى المجتمع، فيعاقب العبد بقسوة القلب، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين:١٤) ،﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد ١٦) ، فإذا قسا القلب عمى عن الخير وانهمك في المخالفات يغفل عن الاستغفار والتوبة، وهذا من مكدرات صفاء الرزق والتعايش السعيد، ويحرم العبد استجابة الدعاء، وهذه من أشد العقوبات إذ لا غنى للعبد عن مولاه، ودوام المرء على الدعاء يطيب له ورود القضاء، قال صلى الله عليه وسلم: (إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه) [1] أي: يعاقب بالأزمات الاقتصادية.

٥- **الأزمات الاقتصادية:** ومن شؤم المعاصي والمخالفات حرمان العبد من بعض خيرات الله ، فيسلط الله الأزمات الاقتصادية بشتى أنوعها، فتتلاطم بهم أمواج الفقر والضوائق والحرمان، فيكدح أحدهم لطلب لقمة العيش فلا يجدها إلا بمشقة بالغة، أو مقابل تنازله عن عقيدته أو عرضه، وقد يحوجه ذلك إلى شرب كأس الذل باللجوء إلى غير المسلمين كما هو الحال، قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف:٩٦)، وقال: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا، لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ (الجن:١٦، ١٧) ، وإذا لم يستقيموا على الطريقة يتبع ذلك تجاوز حدود العفة إلى وقوعهم في الشهوات والرغبات النفسية الرخيصة التي نهايتها الضياع والهلاك.

---

١ سنن ابن ماجه جـ٢/١٣٣٤.

الأهداف التربوية من البحث:

إن قضية التربية قضية حساسة وفي بالغ الخطورة، فهي تحدد مصير الإنسان في آخرته قبل دنياه، فإما سعادة أبدية أو شقاوة أبدية: ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾ (الأنفال:٤٢) ﴿وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾ (التوبة:١١٥) كما أنها الأساس والبنة الأولى إلى التقدم والرقي في شتى المجالات، والمعيار الذي به توزن أفكار الأمم ومواهبها، ويعرف به رقيها من انحطاطها وتقدمها من تأخرها، ولقد ارتفعت في عصرنا الحاضر أعلام التربية واكتسى عنوانها ثوب البهرجة والتزويق معنى ومفهوما حتى تجاوز حده، ونادى المفكرون مكرسين جهودهم على تحقيق مفهوم التربية، وانصبت جهود كبيرة على مستوى الدول على تحقيق هذا الهدف، وتبع ذلك بناء صروح شامخة وخصصت لها ميزانيات ضخمة تتولى العناية بها، فأصبحت التربية حديث الساعة والشغل الشاغل للمجتمعات البشرية، إلا أنه اختلفت الأنظار والأفكار - تبعا للمعتقدات والمبادئ - في تحديد مصدر التربية ومفهومها وما يحقق هذا الغرض النبيل، ومن ثم يجدر إعطاء لمحة عن مثل هذا الموضوع، لكي يُقدم للأمة ما هي في أمس الحاجة إليه، لا سيما في مثل هذه الظروف الحرجة التي تحيط بالبشرية، حيث تشكو حاجتها الماسة إلى تربية يتكون منها فرد صالح، بعد أن جربت جميع المناهج الأرضية وأدركت فشلها في إيجاد الفرد الصالح الذي يتكون منه مجتمع وأمة صالحة.

ولو استعرضنا تاريخ المجتمعات، لوجدنا أنه لم تسعد الأرض وتتشرف بمثل مجتمع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم جيل القرآن الكريم الذين اتخذوا كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم منهجا وسلوكا، لم يعرف هذا المجتمع فلسفة أو نظرية أو تجربة تربوية، بالرغم من ذلك كله ساد العالم

قيادة ومنهجا، وما ذاك إلا بفضل التربية المحمدية التي أشاد القرآن الكريم بفضلها: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ (الشورى:٥٢) وروح الله ـ وهو دينه وكتابه وتشريعه ـ فريد في منهجه وتربيته وفي نفوذه إلى القلوب، مع ما له من مكانة في النفوس، فهو يأخذ الإنسان بكامله بجسمه وروحه وعقله، وينفذ إليه من جميع منافذه ويربيه تربية عامة شاملة، ثم يسايره في جميع أحواله وظروفه، حتى يجعله فردا صالحا يمشي على الأرض بجسمه وهو متوجه إلى السماء بروحه، ليتلقى تعاليمه من لدن حكيم عليم ، فيتخرج في المنهج الإسلامي، وهذه المكانة للقرآن الكريم فحسب، ولو اجتمع أهل الأرض على أن يأتوا بمثل القرآن الكريم مبدأ ومنتهى منهجا وسلوكا لما استطاعوا: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن﴾ مبدأ ومنتهى منهجا وسلوكا ﴿لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ (الإسراء:٨٨) ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ (الإسراء:٩).

وإن مما زرعه أستاذ التربية وإمام المربين صلى الله عليه وسلم وأيقظه في نفوس أصحابه منذ اللحظة الأولى من أصول التربية ودعائم الاستقامة والسعادة، لزوم التقيد بالعفة والاستعفاف في حياتهم العملية في ظل القرآن الكريم، مبيناً أن مقياس تقدم الأمم وتأخرها يكمن في مقدار التقيد والتمسك بحياة العفة في ظل الكتاب والسنة صدقا وإخلاصا، قال تعالى: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾ (النساء:١٧٤، ١٧٥) فكان من فضل هذه التربية المحمدية أن نشأ هذا

المجتمع الإسلامي منذ البداية لا يعرف مصدراً للتربية إلا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وليس له هم سوى تحقيق أهدافهما في كل أمور الحياة والتحاكم إليهما في كل دقيق وجليل، ونظرا لذلك فإن أولي الأحلام والنهى والإصلاح يرون أن التربية حقيقة توقيفية، ينظر إليها في كل الأحوال لتضبط من خلال نافذة شرع الله، ومن منظور المنطق والقيم السليمة السامية، رسمها وخطها الشارع الحكيم، لأنه أدرى بحال الناس من الناس: ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ (النجم:٣٢)

أما التربية المجردة عن تعاليم القرآن الكريم وعن أصالة الحق كالتجارب والنظريات البشرية ففيها مجانبة للحقائق وعن إصابة الهدف، وإن علما لم يكن له نصيب في توجيه الأمة توجيها شاملا فلا خير فيه ألبتة: ﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغني من الحق شيئا﴾ (يونس:٣٦) فإذا تواصى المسلمون وأيقظوا في نفوسهم الشعور الدائم كشعور أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تجاه كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحمل كل رجل ومعلم على عاتقه تعليم من يقع تحت مسئوليته في ترسيخ هذا الفكر والفهم، وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد فغرسوا خلق العفة والاستعفاف في الأطفال منذ الصغر كما فعل صلى الله عليه وسلم مع الحسن بن علي ﷺ وقد أخذ تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه ، فقال له : (كخ كخ- ليطرحها ثم قال-: أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة) [1] وكقوله صلى الله عليه وسلم: (أيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به) [2]

---

[1] صحيح البخاري جـ٣/٣٥٤، صحيح مسلم جـ٢/٧٥١.

[2] المستدرك للحاكم جـ٤/١٤١، وانظر تفسير ابن كثير جـ١/٢٠٤.

وكقوله صلى الله عليه وسلم: (ومن يستعفف يعفه الله) [1] لتكون ركيزة في نفوسهم وعقيدة راسخة في قلوبهم لا يضلون أو ينحرفون عنها، ويجعلوه نصب أعينهم وهم عمرهم تطبيقا قولا وعملا، فإذا ما تربى مجتمع على مثل ما تربى عليه جيل محمد صلى الله عليه وسلم واستحكم فيه هذا الاعتقاد السليم فإنه - بإذن الله - سيتحقق فيه قول الله تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾ (الأنبياء:٧٣) ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ (السجدة:٢٤) بهذه التربية القرآنية كان النبي صلى الله عليه وسلم يربي أصحابه في كل شئون الحياة، وهكذا كان لمدارسهم الأثر الطيب في استقامة الأمة، ترى لو أخذ الخلف ببعض ما عني به السلف من التربية، وقام كل مسئول على من استرعاه الله أمره، وقام المدرسون بهذا الواجب في مختلف الحقول العلمية والعملية صغيرها وكبيرها منذ أول دخول الطفل مدرسته: ﴿هذا حلال وهذا حرام﴾ (النحل ١١٦) فما أجدر بنا معشر الأمة الإسلامية أن نهتم بهذه القضية المصيرية، ونقدرها حق قدرها.

---

١ صحيح البخاري جـ٣/٢٩٤، صحيح مسلم جـ٢/٧٢٩.

خـاتمة

من خلال عرض موضوع: " العفة في ضوء القرآن الكريم مفهومها ومقاصدها وضرورتها" يتبين أن العفة مجمع الأخلاق الفاضلة، منها وإليها تصدر الفضائل وتنتهي، وهي الوجه الآخر للأمن والاستقرار، بل لا تقل ضرورة وحاجة منه، يكاد يجمع العقلاء على أنها الأساس واللبنة الأولى لضبط المجتمعات وحفظ كيانها، والمعيار الذي يعرف به رقي الأمم من انحطاطها وتقدمها من تأخرها، وهل الأمم إلا الأخلاق والآداب، ويظهر عظيم فضل الأخلاق وجليل قدرها في حياة الأمم من **قوله صلى الله عليه وسلم: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)** [1] **وأي بقاء أو نماء إن هي ضيعت ثوابتها أو استرخصت فضائلها.**

---

[1] - المستدرك للحاكم جـ٢/٦٧٠.

وحينما استرخصت بعض المجتمعات خلق العفة واستبدلت بها تطبيق بعض تجاربها الزائفة فيما يخص إشباع الغرائز وتلبية الرغبات أدركت فشلها، بل تفاقم الأمر وشرد الزمام وازداد سوءاً، ظنا منهم أن الأخلاق والقيم مجرد شعار تقليدي يبرزه الإنسان ليقلب وجهه، وعندما قلد بعض من انبهر بتلك الحضارة وجد نفسه أمام موكبين: إما ملحد مدمر منافق مجاهر، أو مجرم متستر داعية إلى ضلالة ليحمل إثمه وإثم من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيء، وما من أمة استرسلت وراء شهواتها إلا حل بها من نكال الله ما حل: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت:٣٥) ، ولكي تحقق المجتمعات حياة السعادة والاستقرار حياة الطهر والصفا فليس لها سوى التقيد والتمسك بالعفة: ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ (الفجر:٥)

وبهذا يتبين حاجة المجتمعات البشرية لهذا الخلق النبيل، وضرورة نشره وإشاعته بين أفرادها، وما أجدر وأحرى بالمسلمين التخلق بها تطبيقا ودعوة، ليكونوا قدوة لغيرهم من الأمم التي لا تعترف بالقيم **والمبادئ، اقتداء بإمام** البشرية وأستاذ المربين صلى الله عليه وسلم وبأصحابه لذين رسموا طريقه صلى الله عليه وسلم هذا وقد صدق الإمام مسلم ﷺ حين قال: (لا يستطاع العلم **براحة الجسم) فإنني قد** بذلت جهدا غير قليل في إعداد وجمع سميع هذا البحث، ولا أدعي العصمة والكمال، ولا عدمت أخا كريما فاضلا نصوحا ستر الزلة وأسـدى النصيحة، وأسأل الله العفو والعافية والإخلاص والمثوبة والنفع، وأن يجعله في ميزان حسنات والدي إنه قريب مجيب الدعوات رب العالمين،

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

فهرست المصادر و المراجع:

١. القرآن الكريم.

٢. الأخلاق الإسلامية وأسسها عبد الرحمن حبنكه الميداني دار القلم – دمشق ط٣ – ١٤١٣ هـ

٣. أخلاقنا د– محمد ربيع جوهري.

٤. الترجمان و الدليل لآيات التنزيل المختار أحمد محمود الشنقيطي دار روضة الصغير – الرياض

٥. التعريفات للسيد على بن محمد الجرجاني الحنفي ، ط مصطفى الحلبي ١٣٥٧ هـ

٦. تفسير القرآن العظيم لابن كثير نسخة مصححة على نسخة دار الكتب المصرية دار إحياء التراث العربي بيروت ١٣٨٨هـ.

٧. جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ط ٢ /١٣٧٣ هـ مصطفى البابي.

٨. سنن أبي داود مراجعة وضبط محمد محي الدين عبد الحميد دار الفكر

٩. سنن الترمذي ط٣ ١٣٩٩ هـ دار الفكر عبد الوهاب عبد اللطيف.

١٠. سنن ابن ماجه تحقيق محمد مصطفى الأعظمي.

١١. صحيح البخاري لأبي عبد الله البخاري ضبط محمد فؤاد عبد الباقي دار الفكر.

١٢. صحيح مسلم بن الحجاج النيسابوري تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي دار إحياء التراث .

١٣. فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر المكتبة السلفية دار الفكر.

١٤. في ظلال القرآن سيد قطب دار الشروق / ط١٦ – ١٤١٠ هـ.
١٥. لسان العرب لابن منظور دار صادر بيروت.
١٦. المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي تحقيق عبد الله أحمد أبو زينه دار الشعب.
١٧. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد نور الدين الهيثمي على بن أبي بكر نشر دار الكتاب.
١٨. مسند أحمد ترتيب رياض عبد الله عبد الهادي ط ٢ ١٤١٤ هـ دار أحياء التراث العربي.
١٩. معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد ابن فارس ط ١، ١٤٢٠ هـ دار الكتب العلمية توزيع الباز، ودار الجيل بيروت.
٢٠. المعجم الوسيط د– إبراهيم أنيس ورفاقه.
٢١. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي
٢٢. مفردات ألفاظ القرآن للراغب تحقيق صفوان عدنان داوودي ط ٢ ١٤١٨ هـ دار القلم دمشق
٢٣. المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم ط ١ ١٤١١ دار الكتب العلمية تحقيق مصطفى عبد القادر عطا.
٢٤. موسوعة أخلاق القرآن د: أحمد الشرباصي دار الرائد العربي – بيروت ط١ – ١٤٠١ هـ

السيرة العلمية:-

الاسم: منظور محمد محمد رمضان محمد

الجنسية: سعودي.

العمل: عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات الإسلامية بالكلية الجامعية جامعة أم القرى.

الدرجة العلمية: أستاذ مشارك.

تخصص: كتاب وسنة.

الشهادات العلمية:

١-إجازة: في تدريس القرآن الكريم وتجويده من معهد دار الأرقم ابن أبي الأرقم في عام ١٣٩١ هـ

٢-بكالوريس : تخصص كتاب وسنة جامعة أم القرى عام ١٤٠٣ هـ

٣-ماجستير: تخصص كتاب وسنة جامعة أم القرى ١٤٠٦ هـ موضوع الرسالة: منهج الإمام "إلكيا الهراسي الطبري في كتابه أحكام القرآن"

٤-دكتوراه: تخصص كتاب وسنة جامعة أم القرى عام ١٤١٤ هـ موضوع الرسالة: تحقيق ودراسة كتاب: "إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض" من آخر كتاب الإيمان إلى نهاية كتاب الحج.

الخبرات العلمية: إجازة في تعليم القرآن الكريم وتجويده.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد.